قادة الفكر في الشرق والغرب

«٨»



حامد عبد القادر

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

قادة الفكر في الشرق والغرب

«٨»

بوذا الأكبر

حياته وفلسفته

وبه فصل فى الموازنة بين الإسلام والبوذية
وآخر فى البوذية والتصوف

تأليف

حامد عبد القادر
المدير العام لشئون اللغة العربية والدين سابقاً
وعضو مجمع اللغة العربية

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقى

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلموا أنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ ، وزينةٌ وتفاخُرٌ بينكم ، وتكاثُرٌ فى الأموالِ والأولادِ ؛ كَمَثَلِ غيثٍ أعجبَ الكفارَ نباته ، ثم يهيج فتراه مُصْفرًّا ، ثم يكونُ حُطاماً ، وفى الآخرة عذابٌ شديدٌ ، ومغفرةٌ من الله ورِضوانٌ ، وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغُرُورِ .

« صدق الله العظيم »

« سورة الحديد : ٢٠ »

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد فهذه قصة عَلَم آخر من أعلام الشرق، الذين جاهدوا فى سبيل الحقيقة والحق.

إنها قصة التضحية والبطولة، وسيرة تغلب الروح على الجسد. ولم تكن التضحية لتحقيق مآرب شخصية بل كانت فى سبيل إنقاذ الروح البشرية، ولم تكن البطولة للوصول إلى أهداف مادية وإنما كانت فى سبيل نشر الحقائق الدينية، والمبادىء الخلقية.

تضحية وبطولة لم يعهد لأى منهما نظير فى العالم القديم، وليس من المتوقع أن يجود الزمان بمثلهما فى العالم الحديث. وقد يعلى من شأنهما ويرفع من قدرها أنهما ينسبان إلى سِدّارثا الأمير الهندى العظيم، أو بوذا الأكبر أشهر حكماء الهند فى العهد القديم؛ ذلكم الرجل العبقرى الفذ الذى قضى الجزء الأكبر من حياته يناصر قوى الخير، ويصارع قوى الشر، ويدعو الناس إلى ضبط شهواتهم البهيمية، وقمع نزعاتهم المادية، والتخلى عن الرذائل الحيوانية، والتحلى بالفضائل الإنسانية.

ولد سِدّارثا الساكيامونى حوالى سنة ٥٦٨ ق. م بإقليم نيبال. ولما كان أبوه ملكا على قبيلة ساكيا فقد نشأ فى بيت الملك، وشب فى أحضان النعيم والترف. وما إن شب وأدرك عهد الفتوة والرجولة، وتبصر فى مآسى الحياة وآلام الناس حتى نقم على الحياة الدنيوية: حياة النعيم والترف، وزهد فيها أشد الزهد، وهجرها كارهاً لها، وانغمس فى خضم الحياة الدينية: حياة التقشف والزهد فى متاع الدنيا

الزائل . وما إن اختلط بالبراهمة رجال الدين فى عصره ، وشاهد مسالكهم ، وخبر طرائقهم حتى نقم عليهم ؛ إذ لم تعجبه مسالكهم ، ولم ترق فى نظره طرائقهم، فهجر ما كانوا عليه من عبادات ظاهرية لاتشبع نهم النفس البشرية ، ولا تنقع غلة الروح الإنسانية .

لقد هجر سدّارتا ملكوت الأرض ، وتطلعت نفسه إلى ملكوت السماء ، وأوى إلى شجرة عظيمة نسميها شجرة العرفان ، وحرم نفسه الطعام والشراب ، والنوم والراحة .

وجلس تحت الشجرة جلسة المستكين الضارع ، وأقسم ألا يفك حبوته، وألا يبرح مكانه إلا إذا أشرقت عليه شمس الهداية الربانية ، وفاضت على نفسه المعارف اللدنية .

وعطفت عليه الإرادة الإلهية فأجابت رغبته ، فما إن انبثق نور النهار من جنبات ظلام الليل حتى هبطت إليه الحكمة من العالم الأسمى ، وفاضت عليه المعرفة من المحل الأرفع ، فأضاءت نفسه ، واطمأنت روحه ؛ إذ قد ارتفعت عنه الحجب ، وتكشفت له أسرار الحياة ، وظفرت روحه بما كانت تصبو إليه ، فأدركت الحقائق الأربع الأبدية ، وألهمت الطريقة ذات العناصر الثمانية .

ولما أصبح الصباح أخذ يسيح فى الأرض متذرعا بالأناة والصبر ، يشرح للناس أسرار عقيدته ، ويدعوهم إلى اتباع طريقته ، فنهم من آمن به وكانوا قليلا، ومنهم من صد عنه وكانوا كثيرا . ولكن هذا الصدود لم يفت فى عضده ، ولم يفل من عزيمته، بل إنه ظل زهاء خمسة وأربعين عاما يجاهد ويصارع حتى التف حوله كثير من الأنصار ، وانتظم فى سلك طريقته عدد كبير من الأتباع . ولما بلغ الثمانين من عمره أدركته منيته ـ حوالى سنة ٤٨٨ ق . م ـ وهو فى ميدان الجهاد ؛ يعظ أتباعه ويدعوهم إلى التمسك بطريقته .

ولم تنتشر البوذية فى الهند انتشارها فى البلاد المجاورة لها إلا بعد وفاة بوذا الأكبر بنحو ثلاثة قرون ، وذلك حين ظهر الملك أسوكا ملك بهار (٢٦٤ـ٢٢٧ ق م) واعتنق البوذية وتحمس لها ، وكان على يديه انتشارها وظهور أمرها فى الهند .

هذه خلاصة موجزة لحياة بوذا الأكبر ، ذلكم الرجل العجيب الذى ظهر فى بلاد العجائب : بلاد الهند الحافلة بالذكريات التاريخية العظيمة ، والآثار الخالدة العجيبة التى تنبيء عن حضارة توطدت أركانها وشمخ بنيانها .

وإننا لانزال نجد حتى يومنا هـذا بيوت العبادة على اختلاف أنواعها منتشرة فى جميع أنحاء الهند يحج إليها المتدينون من كل حدب ، ويهرع إليها المتبتلون من كل صنف .

وقد يكون من الصواب أن نقرر أن كل هندى يمكن أن يعد متدينا ، وأن هؤلاء المتدينين من الهنود يسطرون بأيديهم سفرا خالداً فى التدين يتلوه خلفهم عن سلفهم. ومن الممكن أن نشبه الحياة الدينية الهندية بمحيط عظيم تموج على سطحه الأمواج ، ولكنها لاتلبث أن تتوارى وتغوص إلى ماتحت السطح حتى تصل إلى أعماق المحيط الذى لايسبر غوره ، فتحل أمواج أخرى محلها لاتلبث هى الأخرى أن تختفى — وهكذا دواليك . كما يمكن تشبيه تلك الحياة بتيار جارف يجرف فى طريقته طبقات الماء العليا ، ثم لايلبث أن يندفع إلى القاع ، ثم يعود فيظهر على سطح الماء فى صورة جديدة .

وإننا إذ ندرس ديانات تلك البلاد الموغلة فى القدم يخيل إلينا أننا نسير فى غابة مرت عليها آلاف مؤلفة من السنين، فأماتت بها أشجارا وأحيت أخرى. وهكذا إلى ما شاء الله ؛ ذلك لأنه قد مر على هذه البلاد نحو مائة قرن قامت خلالها ديانات على أنقاض أخرى ، ولا تلبث الديانات الجديدة المزدهرة أن تذبل وتتساقط أوراقها ، ثم تفنى وتنبت فى مكانها ديانات أخرى .

وإننا لا نزال نرى هذه الظاهرة تعمل عملها فى عصرنا هذا فى تلك البلاد — على الرغم من انتشار الحضارة الحديثة بها ؛ فهنالك آلاف مؤلفة من الناس على اختلاف مللهم ونحلهم يجدّون فى الرياضة الروحانية وفى البحث عن الحق والحقيقة ، شأنهم فى ذلك شأن القدماء من آبائهم وأجدادهم الأولين الذين انفصلوا من الشعب الآرى القديم ، وهاجروا من أواسط آسيا الشمالية إلى بلاد الهند ، وتغلبوا على الدراڤيديين سكان الهند الأصليين .

والآن وقد قدمنا للقارىء الكريم فكرة إجمالية تمهيدية عن موضوع هذا الكتاب يجدر بنا أن نشرع فى تفصيل ما أجملنا ، مستعينين بالله تعالى . راجين منه التوفيق ، والهداية إلى أقوم طريق .

القاهرة فى { ذى القعدة سنة ١٣٧٦
يونية سنة ١٩٥٧

حامد عبد القادر

الفصل الأول

الهند وسكانها

---

١ — تمهيد :

إننا إذ نريد التحدث عن بوذا والبوذية لايسعنا إلا أن نعرض عرضا مجملا الديانات والمذاهب الدينية والفلسفية التى سبقتها إلى الوجود ؛ ذلك لأن البوذية لم تنشأ مستقلة لا صلة لها بما سبقها من المذاهب الدينية ، وإنما كانت وليدة تطور مستمر ، بدأ منذ العهد الذى نزحت فيه الطوائف الآرية من الشمال إلى الجنوب ، وأغارت على الهند ، وقضت على سكانها الأصليين .

وهذا يستدعى البحث — ولو على سبيل الإيجاز — فى حالة هؤلاء السكان الأصليين ، الذين لايبعد ، بل يكاد يكون من المحقق ، أنه كان لدياناتهم ونحلهم آثار فى الديانات التى شاعت بين هؤلاء الأريان الذين احتلوا البلاد .

وقبل هذا وذاك يجدر بنا أن نتحدث عن الهند نفسها . والحق أن الحديث عن الهند والشعوب التى أقامت بها ، والديانات واللغات الكثيرة المختلفة التى ظهرت فيها حديث عجب ، وهو فى الوقت نفسه حديث طويل ؛ لتعدد عناصره ، وكثرة نواحيه ، وتشابك أطرافه ، وتباين ما ينطوى عليه من أفكار وآراء . ولا يتسع المقام لعرض هذه المسائل عرضا تفصيليا ، ولذا كان لزاما علينا أن نتوخى فى حديثنا عنها جانب الإيجاز والإجمال .

٢ — البلاد والسكان :

إن الهند كما نعرفها الآن ، وكما كانت قديما ، بلاد عظيمة الساحة ، متباعدة الأطراف ، تشغل الجزء الأكبر من أواسط آسيا ، وجنوبيها ؛ ويجاورها الآن عدة ممالك منها بلوخستان وأفغانستان فى الغرب ، والتركستان فى الشمال ، والصين فى الشمال والشرق ، وسيام وشرقى بورما وجنوبيها فى الجنوب .

ومساحتها هى وبورما حوالى مليون وسبعمائة وستة وستين ألف كيلومتر مربع ، وسكانهما حوالى ثلثمائة مليون نسمة ؛ أى أن مساحتهما وسكانهما تعادلان مساحة أوروبة وسكانها إذا استثنينا الروسيا .

ومن أغرب ما فى الهند تعدد مناظرها الطبيعية واختلافها اختلافا واضحا ؛ فبينما تجد فيها الهضاب المرتفعة والجبال الشاهقة ، وبخاصة جبال هملايا فى الشمال ، إذا بك تجد الوديان العميقة والسهول المنبسطة . وبينما ترى الصحارى والأراضى الجرداء القاحلة إذا بك ترى الغابات الكثيفة والمروج الخصبة ، والمزارع الشاسعة ، والرياض الغناء ، والحدائق الفيحاء ، والأشجار الباسقة ترويها مياه الأنهار العظيمة كنهر السند والكنج . وتجد مع هذا وذاك الجو متغيرا متقلبا ، يشتد برده فى بعض البقاع ، وتعظم حرارته فى كثير من الجهات ، ذلك لامتداد البلاد امتدادا عظيما من الشمال إلى الجنوب .

ولعل هذا التغير الدائم الشامل فى مظاهر الطبيعة ومناظرها كان من بين الأسباب التى أدت إلى تعدد المبادىء السياسية ، وتباين المذاهب الفلسفية ، واختلاف الاتجاهات الدينية التى ظهر أمرها فى هذه البلاد منذ القدم حتى الآن ؛ فقد انقسمت الهند فى عصورها القديمة إلى ممالك وولايات ، وانتشرت بها عدة

لغات تبلغ حوالى الخمسين ، وظهرت فيها ديانات ومذاهب فلسفية مختلفة كما سترى فيما بعد .

وقد كان لحضارة الهند العظيمة المتعددة المظاهر شأن عظيم فى التاريخ القديم ، كما كان لأنواع الفلسفات العميقة ، وضروب الديانات والنحل التى ظهرت بها منزلة كبيرة ومكانة مرموقة فى الثقافة القديمة . وقد أسدت الهند القديمة إلى الحضارة الإنسانية المادية والروحانية من الأيادى البيضاء مالا يمكن إنكاره .

٣ — السكان الأصليون :

إن أقدم ماوصل إلينا من المعلومات عن الهند يدل على أنه كان بها شعبان فى صراع عنيف ، الأول شعب أسمر اللون يسمى الشعب الدراڤيدى ، ويمثل سكان البلاد الأصليين ، والثانى شعب أبيض اللون وهو الشعب الآرى الذى انحدر إلى الهند من الجهات الشمالية الغربية . وقد انتهى الصراع بتغلب الأريان على الدارڤيديين ، الذين اضطروا إلى أن يهاجروا إلى الجنوب فرقا من هؤلاء الغزاة الأجانب . ومن ثم صار الغزاة من الأريان هم المسيطرين على البلاد ، وبخاصة سهول الهندوستان الفسيحة الأرجاء .

وهنا نسأل : من كان هؤلاء الدراڤيديون ؟ ونجيب بأن الرأى السائد بين المؤرخين أن سكان الهند الأصليين كانوا طوائف من الأمم السامية التى هجرت لسبب ما أوطانها الأصلية فى القسم الشمالى الغربى من آسيا ، وظلت سائرة فى طريقها حتى وصلت إلى جنوبى آسيا الوسطى ، واستقر بعضها فى الهند حيث أقامت فى جماعات مستقلة يختلف بعضها عن بعض فى التقاليد والعادات والعقائد .

ولابد أن نفرض أن هؤلاء الساميين هاجروا إلى الهند جماعات جماعات فى

فى عصور مختلفة من عصور التاريخ القديم ، إذ ليس من المرجح أن يكون هؤلاء السكان الأصليون وفدوا على الهند دفعة واحدة فى وقت واحد ، فهذا أمر تأباه الأوضاع الطبيعية .

أما الدليل على أن سكان الهند الأصليين المسمين بالدراقيديين كانوا من الساميين فليس معروفا على وجه اليقين ، وإنما دعا المؤرخين إلى ترجيح ذلك ماعثروا عليه من نقوش فى الصخور تشبه النقوش المأثورة عن الأمم السامية ، وكذلك ما وجدوا فى الديانات الهندية التى ظهر أمرها بين الأريان الفاتحين من مشابهة للديانات السامية التى شاعت بين سكان حوضى دجلة والفرات .

وأما الزمن الذى ابتدأ فيه الساميون احتلالهم لبلاد الهند فليس من السهل تحديده ، ولكن بعض العلماء يعتقدون أن ذلك كان قبل ميلاد المسيح بآلاف من السنين لا تقل عن أربعة أو ثلاثة ، ودليلهم على ذلك ما يروى عن الآريين المغيرين ، وهو أنهم وجدوا هؤلاء السكان الأصليين قد وصلوا إلى درجة من الحضارة والتقدم الاجتماعى لا يمكن الوصول إليها إلا بعد مرور ذلك العدد من آلاف السنين على الأقل .

ومن ثم يرى هؤلاء العلماء أن الهنود أعرق الأمم فى المدنية والحضارة ، وأنهم سبقوا إليها غيرهم من قدامى المصريين والأشوريين واليونان ، وأن حوض نهر الكنج ، لا حوض نهر النيل ، ولا حوضى دجلة والفرات كان مهد الحضارة الأولى .

هذا هو ما زعمه هؤلاء العلماء ، ولكنه زعم فيه نظر ؛ إذ أنه من الجائز أن يكون هؤلاء الساميون الوافدون قد نقلوا إلى الهند — موطنهم الجديد — حضارتهم

التى كانوا قد ألفوها فى موطنهم القديم ، وبذلك يكون ذلك الوطن القديم لا الوطن الجديد هو مهد الحضارة الأولى .

ومهما يكن من أمر فإن الهنود القدامى لم يكونوا بمعزل من غيرهم من الأمم الشرقية القديمة ، بل كانت بينهم وبين هؤلاء صلات تجارية وسياسية ، ونشبت بين هؤلاء وهؤلاء حروب دامية ، وبخاصة بين الهنود وجيرانهم الفرس ؛ فالتاريخ يذكر أن الهنود قد اتصلوا اتصالا ما بالمصريين فى العصور القديمة ، وأنهم قاوموا الإسكندر الأكبر المقدونى ، وأوقفوا غزواته فى البلاد الشرقيه فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وأنهم اتصلوا بالحضارة اليونانية ، ثم بالحضارة الرومانية .

ولما ظهر الإسلام غزا الجزء الغربى من بلاد الهند فى القرون الهجرية الأولى ، وفى القرن الخامس الهجرى امتد نفوذ الإسلام فى تلك البلاد على أيدى الدعاة والغزاة من المسلمين ، وفى مقدمتهم السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١ هـ) الذى يوصف بأنه محطم الأصنام[١] .

وما زال شأن الإسلام يعلو فى الهند ، وما زال عدد المسلمين بها يزداد حتى بلغ ٨٠ مليونا ، وحتى قامت بها إمارات إسلامية ، وانتهى أمرها إلى تقسيمها حديثاً إلى دولتين عظيمتين مستقلتين ، إحداها إسلامية وهى دولة الباكستان ، والأخرى هندوكية وهى دولة الهند .

٤ — ماذا كانت ديانة الهنود الأقدمين ؟

إن هذه مشكلة لم يصل الباحثون بعد إلى حلها حلا مرضيا ، فكل ما يقال

---

(١) راجع تاريخ ابن الأثير ٩ — ١٢٧ وما بعدها .

فى الجواب عن هذا السؤال من قبيل الحدس الذى لم يرق بعد إلى درجة اليقين . على أننا إذا قلنا بالمبدأ الأساسى أو القاعدة العامة التى تنطبق على الشعوب القديمة كان لنا أن نقرر أن هؤلاء الأقدمين كانت لهم ديانة من نوع ما ، وأن هذه الديانة كانت على الأرجح الديانة الطبيعية الأولى ، التى تتلخص فى أن هؤلاء القدامى كانوا يتخذون من المظاهر الطبيعية القوية آلهة يتقربون إليها ، وأنهم كانوا يرمزون لآلهتهم هذه بتماثيل ، ويصفون حياتها فى نقوش ينقشونها على الصخور .

وتروى بعض الأساطير أن سكان الهند الأصليين كانوا يعتقدون أن معظم آلهتهم من الإناث القادرات على التصرف فى شئون الإنسان والحيوان بالرضا أو بالسخط ، فمن قدسهن وقدم لهن القرابين رضين عنه وأحطنه برعايتهن ، ومن لم يفعل ذلك سخطن عليه وأهلكنه وأهلكن ماشيته . ولعل هذه العقيدة ترجع إلى ما شاع بين بعض الشعوب القديمة من المغالاة فى تقدير المرأة ، والنظر إليها نظرة احترام وصل إلى درجة التقديس .

وقد كان من الطبيعى أن يكون لديانة هؤلاء القدامى تأثير فى ديانة الآريين الفاتحين ، وقد يؤيد ذلك ما عثر عليه من رموز وتماثيل يرجع عهدها إلى حوالى القرن الثلاثين قبل الميلاد تشبه الرموز والتماثيل التى أقامها أولئك الآريون الفاتحون .

٥ — *متى ؟ ومن أين وصل الآريون إلى الهند ؟*

قلنا فيما سبق إن سكان الهند الأصليين كانوا — على الأرجح — من الساميين الذين هاجروا إليها قبل ميلاد السيد المسيح بآلاف السنين . وهنا نسأل : متى غزا الآريون بلاد الهند ؟ ومن أى الجهات وصلوا إليها ؟

ونستفتى التاريخ فلا يعطينا جوابا يقينيا عن هذين السؤالين . وكل ما يستفاد من الآراء المتضاربة أن هؤلاء الأجانب بدءوا غزوهم لهذه البلاد قبل ميلاد السيد المسيح بنحو خمسة عشر قرنا أى حوالى ألف وخمسمائة سنة . وربما يؤيد هذا الرأى ما عثر عليه الباحثون من نقوش آرية يرجح أن تكون قد نقشت فى الصخور فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد على وجه التقريب ، وكذلك ما يراه بعض الباحثين من الأوربيين استنادا إلى أدلة فلكية ، وهو أن تدوين الفيدا كان حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كما سترى بعد .

والمرجح أن تدوين هذا الكتاب المقدس قد تم بعد استقرار الآريين الفاتحين فى بلاد الهند ، أى بعد مرور قرن على الأقل — من بدء غزوهم للبلاد .

هذا هو الرأى الراجح حتى الآن فى الجواب عن السؤال الأول . أما الجواب عن السؤال الثانى وهو : من أى الجهات وصل الآريون إلى بلاد الهند ؟ فقد ذهب فيه المؤرخون مذهبين .

الأول هو : أن هؤلاء الأريان الذين استولوا على الهند كانوا من الشعوب الآرية التى كانت — قبل انقسامها إلى شعوب مختلفة — شعبا واحدا يقيم بسهول آسيا الشمالية الشرقية . ولما ضاقت الأرض بهذا الشعب الواحد هاجر فريق منه إلى بلاد البنجاب وما يليها إلى الجنوب ، وهذا الفريق هم الهنود الذين انتشروا فى الجزأين الجنوبى والشرقى من آسيا الوسطى ، وهاجر فريق آخر إلى ميديا وفارس ، وهؤلاء هم الإيرانيون الذين انتشروا فى الجزء الشمالى والغربى من آسيا إلى حدود آشور وبابل .

ويفصل خونيكوف **Khonicoff** المؤرخ الروسى القول فى هذا الموضوع فيروى أن الأريان أو الآريين — الأجداد الأولين للشعوب الهندية الأوربية —

كانوا يقيمون فى بقعة من الأرض فى الجزء الشمالى الغربى من إيران الحالية . ولما ضاقت بهم هذه الأرض ، وأضناهم شظف العيش بها اضطروا إلى أن يهاجروا منها إلى مكان آخر يتلمسون فيه أسباب الحياة ، فانحدرت طائفة منهم نحو الجنوب ، وانتهى أمرها إلى أن انقسمت ثلاث فرق . أما الأولى فأقامت بسهول إيران . وأما الثانية فقد عبرت هذه السهول ، وتابعت سيرها نحو الشرق حتى وصلت إلى بلاد الهند الحالية . وأما الثالثة فقد عرجت فى طريقها على سهول هرات حيث طاب لها المقام .

هذا هو الرأى الأول ، ويتلخص فى أن الآريين الذين استولوا على الهند بعد صراع عنيف وحروب طاحنة متوالية نشبت بينهم وبين الساميين — سكان البلاد الأصليين — جاءوا إلى الهند من إقليم بحر خوارزم سائرين من الشمال إلى الجنوب الشرقى (١) .

أما الرأى الثانى فيتلخص فى أن هؤلاء الغزاة كانوا منذ القدم يقيمون فى حوض الدانوب فى القسم الشرقى من أوربة ، فلما ضاقت بهم الأرض هاجر فريق منهم إلى الشرق ، وبقى فريق آخر فى أوربة . أما الفريق الأول فقد انقسم إلى شعبتين رئيسيتين أقامت الأولى بميديا وفارس ، وتابعت الأخرى سيرها حتى وصلت إلى بلاد الهند فاستولت عليها من الساميين على النحو الذى شرحناه .

وهذا الرأى — على العكس من الرأى الأول — يجعل أوربة لا آسيا — الوطن الأصلى للشعوب الهندية الأوربية ، ومع أن أصحابه يقيمون على صحته بعض الأدلة فلا يزال الرأى الأول هو الراجح ، الذى تؤيده أدلة لغوية أهمها ما أسفر عنه البحث الفيلولوجى من انحدار اللغات الهندية الأوربية من اللغة السنسكريتية ، التى يكاد يكون من المتفق عليه أنها لغة نشأت فى آسيا لا فى أوربة .

(١) راجع كتاب : زرادشت الحكيم للمؤلف ص : ٩ — ١٠ .

الفصل الثانى

الحياة الدينية لدى الهنود قبل البوذية

(أ) الديانة الفيدية

---

١ — قلنا إنه من الضرورى — لكى نفهم الديانة البوذية على وجهها الصحيح — أن ندرس المذاهب الدينية التى سبقتها . ومن الممكن أن نقسم الحياة الدينية لدى الهنود الآريين إلى ثلاثة عصور رئيسية هى : —

أولا : العصر الفيدى الأول ويشمل ثلاث مراحل فرعية هى : —

١ — مرحلة ظهور التعاليم المستنبطة من نصوص الفيدا بأقسامها الأربعة .

٢ — مرحلة ترجمة الفيدا أو تأويلها على أيدى البراهمة . ويسمى هذا التأويل البراهماناس .

٣ — مرحلة تلخيص الفيدا فى أسفار مقدسة تسمى الأوبانيشادات .

وتسمى الديانة المستنبطة من نصوص الفيدا ومن البراهمانات الديانة العملية ، أو ديانة الطقوس الدينية Karma Kanda . أما الديانة المدونة فى الأوبانيشادات فتسمى الديانة النظرية Jnana Kanda .

ثانياً : عصر الإلحاد (على حد تعبير المحافظين المتمسكين بنصوص الفيدا) ، وفيه ظهرت الديانتان الجينية والبوذية فى القرن السادس قبل الميلاد .

ثالثاً : العصر الفيدى الثانى، وهو عصر الديانات الهندوسية التى تتضمن العودة إلى تعاليم الفيدا والتوسع فى تأويلها . وقد نشأ عن ذلك مذاهب دينية وفلسفية مختلفة تمثلها الديانات الهندية الحالية على اختلاف صورها .

٢ — ويراد بالعصر الفيدى الأول ذلك العصر الذى كانت فيه نصوص الفيدا بأقسامها الأربعة هى المرجع الوحيد أو المنبع الأساسى الذى تستمد منه التعاليم الدينية .

ومعنى فيدا أو فيدوس : العلم أو المعرفة . وهى كلمة سنسكريتية مشتقة من كلمة فيديا Vidya ومعناها علم أو قانون .

ومما يسترعى النظر فى أمر الفيدا اختلاف العلماء فى زمن وضعها فى صورتها النهائية اختلافا كبيراً ، فيذهب بعضهم إلى القول بأن عشرة آلاف سنة قد مرت قبل أن يضع الريشيون الفيدا فى صورتها النهائية ، وكان الناس من قبل تدوينها يتداولونها فيما بينهم بطريق الرواية الشفوية ، وظل السلف ينقلونها إلى الخلف حتى ظهر الريشيون فى زمن ما قيل هو القرن الثلاثون وقيل هو القرن الخامس عشر قبل الميلاد — فدونوها .

ويرى فريق آخر من العلماء أن الفيـــدا لا ترجع فى أصل وضعها إلى مصادر هندية قديمة ، ولكنها — هى أو على الأقل عناصرها الأولى — أجنبية ، أتى بها الآريون وأذاعوها فى الهند بعد استيلائهم عليها حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد كما قلنا من قبل .

ومهما يكن من أمر الزمن الذى وضعت فيه الفيـــدا فالمعروف أنها أقدم الكتب المقدسة التى عرفها الإنسان . والمشهور أن وضعها قد تم على أيدى فريق من حكماء الهنود القدامى يطلق عليهم اسم الريشيين أى الحكماء أو العارفين ،

الذين دونوا بأيديهم الحكمة التى وصلت إليهم بطريق الإلهام الشخصى ، أو بطريق الرواية الشفوية عمن سبقهم . على أن بعض الأساطير الهندية القديمة تعزو وضع الفيدا إلى رجل معين يسمى فياسا Vyasa[١] .

ولا تعد الفيدا فى نظر الهنود كتابا مؤلفا ، ولا مجموعة من الحكايات الصادرة عن نبي أو أنبياء ، وإنما تعد كنزا يتضمن الحكمة المقدسة الأزلية الأبدية الكائنة منذ الأزل ، الباقية إلى الأبد ، وإن كان إظهاره للناس قد تم فى زمن معين[٢] . وقد كان الريشيون هم الذين أيقظتهم روحانيتهم العميقة ، فرفع عنهم الحجاب ، وفوجئوا باطلاعهم على تلك الحكم الأزلية الأبدية .

وليس الوصول إلى هذه المنزلية الكشفية التى وصل إليها الريشيون مقيدا بقيود حسب أو نسب ، أو ذكورة أو أنوثة ، بل إن الأمر فيها هو — كما يقول الريشى العظيم ڤاتسيانا Vatsayana — أن كل من يصل بطريق مباشر إلى إدراك القانون المقدس (دارما) ، هو وحده الذى يستطيع أن يكون حكيما أو عارفا (ريشيا) ولو كان أجنبيا (مليخا Mlecha) لا يمت إلى الريشيين بصلة نسب . ومن ثم كانت الڤيدا فى نظر الهنود فيضا ربانيا مقدسا اطلع عليه هؤلاء الحكماء الأقدمون الذين كانوا وسطاء بين الخالق والمخلوق .

ومن الكتب المقدسة[١] لدى الهنود بالإضافة إلى الڤيداس — أربعة كتب أخرى هى :

(١) البوراناس (Pouranas) ، و (٢) الراوايان (Rawayan) ،

---

(١) راجع كتاب : A Critical History of Philosophy by Mahan Vol I. p. 81,

(٢) وازن بين هذا الرأى ورأى علماء المسلمين فى قدم القرآن الكريم .

و (٣) ماهابهـــاراتا mahabharata ، و (٤) مناقا داهارما شاســـتر Manava Daharma Shaster .

ويشتمل الأول على ثمانى عشرة قصيدة ، قصدبها شرح الأساطير المتعلقة بالإله والعالم . ويشتمل الثانى والثالث على تاريخ الآلهة ومآثرهم . ويشبهان بذلك الإلياذة والأودسى فى الأدب الإغريقى . أما الرابع فيشتمل على مجموعة من القوانين .

ومن المسلم به أن ما تشتمل عليه هذه الـكتب من عقائد وأساطير مستنبط من الڤيدا . وقد كان ولا يزال لهذه الـكتب آثار عميقة فى حياة الهنود قيل أنها تفوق آثار الـكتاب المقدس فى حياة المسيحيين .

وقد ظهرت الڤيدا أول ما ظهرت فى أربعة أقسام هى : —

١ — ريج ڤيدا (Rig veda) وهى أشهر الڤيدات ، وأشدها تأثيرا فى حياة الهنود الدينية . كما أنها تعد أقدم الآثار الأدبية الدينية الهندية . ويقول بعض مؤرخى الهنود إنها ألفت فيما قبل التاريخ ، أو حوالى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد . ويرجح الباحثون من الأوربيين استنادا إلى أدلة فلـكية أن ذلك كان حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

٢ — ياجورڤيدا Yajur Veda .

٣ — ساماڤيدا Sama Veda .

٤ — آثارڤاڤيدا Atharva Veda .

أما ريج ڤيدا فتشتمل على ١٠١٧ أنشودة دينية ، فى أربعة أسفار ، يسمى كل منها : ماندالا (Mandala) ، وضعت ليتضرع بها قدامى الأريان إلى مجموعة الآلهة التى كانوا يعبدونها . ولذا نرى أنها تعطينا فكرة واضحة عن عقيدة هؤلاء القدامى فى الآلهة ، وعلاقتهم بالعالم .

فأما الآلهة فمسكنهم القبة السماوية ، وليس بعضهم أعلى منزلة من بعض ، وهم على تعددهم يكونون وحدة متماسكة تسمى بعدة أسماء ، يدل على ذلك عبارة وردت فى هذه الفيدا ترجمتها : « إنها (أى مجموعة الآلهة) هى التى يسمونها إندرا ، أو مترا ، أو فارونا ، وليس فى الوجود إلا إلـه واحد ، يطلق عليه الناس أسماء مختلفة » .

وهذا الإله الواحد هو العقل الأسمى ، أو القوة العليا . وما هذه الآلهة التى يذكرون أسماءها إلا مظاهر مختلفة لهذا الـكائن الواحـد . وإذا كان فريق من الناس يخص بالعبادة والتقديس إلها يطلقون عليه اسما معينا ، فليس ذلك لأن لهذا الإله وجودا مستقلا ، أو منزلة تفوق منزلة غيره ، بل لأنه يمثل صفات خاصة من صفات الإله الواحد ذات آثار ظاهرة فى رعاية الإنسان وإسعاده .

وأما العالم فإنه — كما يؤخذ من بعض أناشيد الريج فيـدا — يخضع لنظام أو مبدأ خاص ، أو قاعدة ثابتة ، هى قاعدة السبب والمسبب، أو مبدأ العلة والمعلول؛ فلـكل حادثة تحدث فى العالم سبب ، وإذا وجد السبب الـكافى وجد المسبب .

وتشير بعض عبارات هذه الفيدا إلى الاعتقاد بوجود مبدأ أو قوة واحدة تسيطر على العالم جميعه ، وهى قوة خفية ، أجل من يوضع لها اسم ؛ إذ لا يوجد لفظ يدل على صفاتها دلالة واضحة . وهى التى أوجدت كل ما يشتمل عليه عالم الظواهر أو الأشباح المادية وعالم الأرواح المجردة من شوائب المادة حتى الآلهة أنفسهم .

وقد شاع بين قدامى الآريان القول بأن هذه القوة الخفية لا حد لها ، ولا يمكن أن تدركها الأفهام ، ولا أن تدل عليه الصفات ، ولا يستطيع العقل البشرى المحدود الطاقة أن يدرك كنه هذه القوة إلا إذا فنى فيها .

ويبدو مما ورد فى هذه الفيدا أن النظام الذى يعم العالم المادى — عالم الأسباب والمسببات — يشرف عليه كائن روحانى إلهى الطبيعة يسمى ريتا Rita .

وفى مقدمة الآلهة التى تكثر هـــذه الڤيدا من التضرع إليها : إندرا (Indra) ، وأغنى (Agni) ، وڤارونا أومترا (Varuna or mitra) .

أما إندرا فقد خص وحده بما لايقل عن الربع من ابتهالات الريج ڤيدا ، وشارك غيره فى مثل هذا العدد . ويوصف بأنه أقوى مظاهر الألوهية ، ويعزى إليه أنه هو الذى يهب لإنقاذ الإنسان من الشرور والأخطار التى قد تحدق به ؛ فهو بذلك يعد المنقذ الأول للإنسانية . وبعبارة أخرى نقول : إن إندرا يمثل صفة « الإنقاذ » من صفات الإله الواحد .

تقول الريج ڤيدا : « دعنى أحدثك الآن عن أعمال البطولة التى نهض بها إندرا ؛ إنه هو الذى قتل الأفعى ، وشق صخور الجبال ليخرج منها الماء . إنه هو الإله الذى حين خلق لم تلبث القوة الروحانية أن حلت به ، إنه هو الذى رعى الآلهة (الآخرين) ، وحماهم بقوته . إنه هو الذى خشى العالمان (المادى والروحانى) شدة بأسه وقوة سلطانه ، إنه هو إندرا » .

وأما أغنى فهو المظهر الأول للقوة المقدسة ، وهوالذى يتراءى للناس فى صور مختلفة ، أدناها : نار الموقد ؛ وأسماها مافى العالم السفلى والعلوى من مظاهر العظمة .

وقد جعلت النار رمزا يمثل مقدرة هذا الإله على التطهير ، وهو أيضا صديق الإنسانية ، ومنقذها ؛ إذ أنه هو الذى يوجد النور بعظمته ، ويفنى الشر ويهزمه أمام جبروته .

وأما ڤارونا ثالث هذا الثالوث فيمثل المثل الخلقية العليا فى العالم ، وهو الحارس الأمين على النظام الخلقى ؛ يشرف على أعمال الناس ، فيثيب المحسن ، ويعاقب المسىء .

وتذكر الريج ڤيدا آلهة أخرى ليس من السهل حصرها ، ومن بينها الإناث .

وتقول إن هذه الآلهة جميعها تقف من الإنسان موقف العطف والشفقة ، فتهب لنصرة الإنسانية وحمايتها من المردة من الشياطين ، ومن قوى الشر التي لاتفتأ تهدد الإنسان ، وتحول بينه وبين السعادة .

هذه هي الريج ڤيدا . أما الڤيدات الثلاث الأخرى فتشتمل على التعاليم والإرشادات التي تؤدى بها الطقوس الدينية . وقد نظمت فيما بعد تنظيما جديدا ، ووضعها البراهمة في صورة أحكم وضعا ، وأدق أسلوبا . وهي الصورة التي يطلق عليها اسم البراهماناس .

وتشتمل الياجورڤيدا على العبارات النثرية التي يتلوها القسيس عند تقديم القرابين .

وتشتمل الساماڤيدا على الأغاني التي ينشدها المنشدون في أثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية .

وتشتمل الأثارڤاڤيدا على مقالات في السحر .

الفصل الثالث

الحياة الدينية لدى الهنود قبل البوذية

(ب) الديانة البراهمانية الأولى

(ا) معنى كلمة براهما أو براهمان : —

تستعمل كلمة براهما فى الريج ڤيدا بمعنى التبتل ، وبمعنى الشعار الدينى ، والصلاة ، والترنيمة الدينية . وفى عصور متأخرة أطلق على الكاهن أو القسيس اسم براهمان . وقد يكون السبب فى ذلك أن الكاهن عابد متبتل ، أو مؤلف للترنيمات الدينية ،

ثم أطلق اسم الديانة البراهمية على العقائد والمبادىء الفلسفية التى اعتنقها الكهنة مستنبطة من الڤيدات الثلاث الأخيرة بطريق التأويل ؛ فأتباع الديانة البراهمية يشبهون أهل الرأى فى الديانة الإسلامية . كما يشبه أتباع الديانة الڤيدية النصية أهل الحديث من أئمة المسلمين .

وأخيراً انتهى البحث الفلسفى فى الديانة البراهمية إلى إطلاق اسم براهمان على الوجود المطلق ، أو المبدأ الأول ، أو رأس الآلهة — كما سترى .

وتوصف الديانة البراهمية التى ظهرت قبل البوذية بأنها البراهمية الأولى ، أما التى ظهرت بعد ذلك متأثرة بالجينية والبوذية فتوصف بأنها البراهمية الثانية .

٢ — مصادر البراهمية الأولى وعقائدها : —

ظهرت البراهمية الأولى فيما بين سنتى ٨٠٠ و ٦٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب وترجم بالإضافة إلى الڤيدات إلى ثلاثة كتب مقدسة هى : —

(ا) البراهماناس : وهو كتاب مقدس مستنبط من الفيدات الثلاث الأخيرة السابق ذكرها ، ويشتمل على مقالات تفيض فى شرح الطقوس والشعائر الدينية التي يمارسها رجال الدين فى نظام تفصيلى دقيق .

ويضم هذا الكتاب طائفة البراهمة أي رجال الدين فى المرتبة الأولى من الطوائف الأربع التي يتألف منها الشعب الهندى ، ويمتاز بعضها من بعض فى الشرف والمكانة الأدبية امتيازاً دقيقاً لامجال فيه للخلط . ويجعل الكتاب لهذه الطائفة وحدها الحق المطلق والسلطة التي لاتنازع فى تأويل نصوص الفيدات الثلاث ، وتطبيقها فى ممارسة الطقوس والشعائر الدينية ، وتزعم حفلاتها ، كما يقصر الوظائف الدينية على أفراد هذه الطائفة بحيث يتولاها الخلف عن السلف منهم بطريق الوراثة الطائفية . وتكاد الطقوس الدينية تنحصر فى تقديم القرابين إلى الآلهة والقوى السماوية لتهدئة ثورة غضبها ، واستدرار عطفها على الإنسان ، ومساعدته فى حل مايستعصى عليه حله من مشكلات ، وكشف مايحل به من نكبات فى هذه الحياة .

ويعزو كاونتز نشأة نظام الطبقات [١] فى الهند إلى الشعب الآرى الذى غزا تلك البلاد ؛ وذلك حيث يقول : [٢] :

إن المغيرين على الهند من الشعب الآرى حينما شقوا طريقهم إلى الجنوب وجدوا من المصلحة أن يقسموا الشعب طوائف أربعا هى : (١) طائفة البراهمة ،

---

(١) راجع كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة » للبيرونى ، ففيه مزيد بيان لهذه الطبقات والسبب فى ظهورها .

(٢) راجع A Popular History of Philosophy, by M. M. Kaunitz. p. 31.

وهم رجال الدين ، و (٢) طائفة الخشروجا ، وهم الجنود ، و (٣) طائفة الفائسيا ، وهم التجار ، و (٤) طائفة السودار وهم العمال » .

ويسمي البيروني هذه الطوائف على الترتيب السابق : البراهمة ، وكشتر ، وبيش ، وشودر .

(ب) الأوبانيشادات Upanishads . ويظن أنه دون فى القرن السادس قبل الميلاد . ويرى كاونتز أن هذا الكتاب ظهر قبل أن تصير الديانة البراهمية ديانة مستقلة ، بل قبل الكتب المقدسة الأربعة التى ذكرناها من قبل .

ويتضمن هذا الكتاب الأفكار والآراء التى أدركها أهل الورع والتبتل بطريق الإلهام . ويشتمل على عدد من الأسفار يتراوح بين مئة وخمسين ومئتين ، يتكون الجزء الأكبر منها من محاورات نثرية تدور بين تلميذ (شيلا chela) وأستاذ (جورو Guru) حول مسائل فلسفية عميقة مثل : كنه الحقيقة الواقعية ، والظاهر الخداعة التى ليست حقائق واقعيـة ، وصدور التعدد عن الواحد ، وتخلص الفرد من بنى الإنسان من الكثرة واندماجه فى الواحد .

وتقوم العقائد التى يتضمنها هذا الكتاب على ثلاثة أسس أو مبادىء رئيسة هى : -

١ — الاعتقاد بالوحدة المثالية ، أو الحقيقة الفردية ، أو المبدأ الواحد الأحد الذى يعد كل فرد من بنى الإنسان جزءا منه غير منفصل عنه . وهو وإن انفصل عنه فى الظاهر فلابد أن يرجع إليه ، ويندمج فيه فى النهاية . وهذا هو مبدأ وحدة الوجود ووحدة الإله الذى شاع فى جميع الديانات الهندية تقريبا .

ويطلق هذا الكتاب المقدس على ذلك المبدأ الواحد اسم براهمان ، ويصفه

بأنه الكلمة أو المبدأ الذى لا حد له ، والكائن الذى يستمد وجوده من ذاته ، وتستمد جميع الكائنات وجودها منه .

ويطلق على القوة البراهمانية الروحانية المسيطرة على العالم اسم آتمان Atma n ، الذى هو فى الوقت نفسه الروح البشرية الجزئية التى تحل بالإنسان وتكسبه حقيقته الإنسانية ، ولا تقل فى عظمتها وأزليتها وأبديتها عن آتمان — الروح أو النفس الكلية المسيطرة على العالم .

يقول هذا الكتاب فى وصف الآتمان ماخلاصته :

« إن آتمان ليس هذا ولا ذاك . إنه قوة مستقلة غير مقيدة بشىء ، لايمكن إمساكها ، ولا إعدامها ، ولا إزعاجها ، ولا الاعتداء عليها ، ولا إلحاق الضرر بها » .

ويتحدث الكتاب عن الآتمان بلسان الإنسان فيقول :

« إنه هو نفسى التى تحتل سويداء قلبى ، إنه أعظم من السماء ، وأعظم من الأرض ، وأعظم من سائر الأجرام السماوية ، وأعظم من جميع العوالم . إنه هو الكل فى الكل فى القيام بالأعمال ، وتجدد الرغبات ، وشم الروائح ، وذوق الطعوم ، إنه يحيط بالعالم . إنه قوة صامتة لا تشعر بضيق ولا حرج ، إنه هو نفسى التى تحتل الصميم من قلبى ، إنه براهمان . إن من يكون على بينة من ذلك تنصرف عنه الشكوك ، وتذهب عنه الأوهام » .

والاتصال بهذه الروح الكلية هو الغرض الحقيقى من حياة الهندى الذى يقول وهو يعبر عن عقيدته متضرعا إلى ربه : « أخرجنى من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة ، ومن الظلمات إلى النور ، ومن الفناء إلى الخلود . »

وجهاد النفس الجزئية (جيفاتمان Jiyantaman) فى سبيل الوصول إلى

النفس الـكلية (پارامانتمان Paramantaman) مبدأ مشترك بين جميع المذاهب الهندية الدينية .

وفى هذا الـكتاب كثير من العبارات التى تؤكد وحدة الوجود منها : « إن ماههنا هو عينه الذى هنالك ، وإن ما هنالك هو عينه الذى ههنا . ومن يرى فرقاً بين هذا وذاك ينتقل من موت إلى موت » .

هذا هو المبدأ الأول ، أما المبدأ الثانى فهو :

٢ — مبدأ تناسخ الأرواح ؛ ويقضى بأن كل نفس من النفوس الجزئية تسلك فى رحلتها إلى العالم العلوى مراحل متوالية ، فتنتقل من جسد إلى آخر ، وتتحول من حالة إلى أخرى ، فى فترات متتالية تولد فيها مرة بعد أخرى ، وتتقمص جسداً بعد آخر ، وتحيا حياة بعد حياة ، ولا تزال ترقى من منزلة إلى أعلى منها ، حتى تصل إلى أعلى درجات الـكمال والتقديس والصفاء ، فتصعد إلى العالم العلوى وتسعد فيه ، ولا تشتاق إلى أن تعود إلى الحياة الدنيا .

فالروح الجزئية أو الشخصية لاتفنى ، ولـكنها تنتقل من جسد إلى جسد . ويتوقف سموها فى فترة ما من فترات حياتهـا على سلوكها فى الفترة السابقة ، فسلوك الإنسان أو سلوك الآتمان الذى يحقق إنسانيته فى فترة ما هو الذى يترتب عليه ماتحظى به روحه من رقى وسمو فى الفترة التالية ؛ بناء على المبدأ الثالث الآتى ذكره ، وهو مبدأ (الـكارما) أى مبدأ العلة والمعلول .

وإن هذا السمو الروحانى الذى ينتهى باتصال النفس الجزئية بالنفس الـكلية هو الغرض الذى ينبغى أن يسعى كل فرد فى تحققه .

ولا مفر من أن يجزى كل فرد على كل ما يدور بخلده من أفـكار . وعلى كل مايقع منه من أعمال .

وفى ذلك يقول هذا الـكتاب :

« إن من يخلق فى نفسه شهوات فسوف يولد مرة أخرى متلبسا بتلك الشهوات ولـكن من يحقق رغباته ، ويشعر بوجود نفسه الحقيقية فسوف تنصرف عنه جميع الرغبات حتى فى هذه الحياة الدنيا . وإن كل شخص فى هذه الحياة ينطوى على رغبات ، وكما تـكون رغبته تـكون إرادته ، وكما تـكون إرادته يكون عمله ، وما يعمل من عمل فسوف يجزى عليه . ويجنى ثمرته » .

وهذا معناه ارتباط الجزاء بالعمل ارتباط المسبب بالسبب . وهذا أيضاً هو ما يفهم من المبدأ الثالث وهو :

٣ — مبدأ الـكارما أى ارتباط المسبب بالسبب ، أو المعلول بالعلة . وهو مبدأ لا يتخلف ، ولا يمـكن أن يقاوم ، ومن الواجب الإيمان به . وصلة هذا المبدأ بالمبدأين السابقين واضحة ؛ لأن مؤداه أن تصرف الإنسان — أو تصرف روحه المحققة لإنسانيته — فى فترة ما يترتب عليه أو ينشأ عنه ما ستكون عليه الروح فى الفترة أو فى الحياة التالية من سمو يؤهلها للسير فى طريق الرقى ، حتى تتصل بالواحد أو الوجود المطلق ، وتفنى فيه .

ومعنى هذا كله أن الإنسان وحده هو المسئول عن مصيره .

ويزيد الـكتاب هذا المعنى وضوحا إذ يقول : « كما أن الصائغ يأخذ قطعة من الذهب فيجعل منها قطعة أخرى أجد وأجمل شكلا فـكذلك هذه النفس البشرية الجزئية ، فإنها بعد أن تنبذ هذا الجسد ، وتتخلى عن جميع مظاهر الجهل تجعل من نفسها نفسا أخرى أجد وأجمل شكلا كشكل الأب ، أو كشكل براهما ، أو غير هذا وذاك من الـكائنات » .

ومن ثم نرى أن مبدأ (الـكارما) الذى يقوم على تلازم السب والمسبب ليس من البشاعة والشؤم كما يصوره بعض الباحثين ؛ فإن الآتما أو النفس البشرية

الجزئية خير نصير للإنسان ، تدفعه دائما إلى الأمام ، وتوحى إليه بمتابعة الجد والسعي فى طريق الرقى ، واتباع السلوك القويم حتى ترجع هى إلى أصلها الذى عنه نشأت وهو براهمان .

ولا سبيل إلى تقويم السلوك إلا اتباع تعاليم ذلك الكتاب . وهذا هو معنى قوله : « على الإنسان بعد أن يتخذ من الأوبانيشادات قوسه وسلاحه البتار أن يزين سهمه ، ويحسن سنه بالتبتل والتفرغ للعبادة ، حتى إذا ما ركب السهم ، وشد الوتر وأجاد التفكير ، وأحكم الرماية أصاب الهدف . »

« أيها الصديق ! إن القوس هو الأم (Om = شريعة) ، والسهم هى الروح الجزئية ، والهدف هو براهمان الذى لا يقبل الفناء ، ذلك هو الواحد الذى يدخل فى كيانه العالم العلوى ، والأرض ، والسماء وكذلك العقل ، وجميع الحواس . ولا يصيب ذلك الهدف إلا المفكر البصير . وحين يتصل السهم بالهدف ، ويصيران شيئا واحدا يتحد الإنسان وبراهمان ويصيران شيئا واحدا كذلك » .

أما الكتاب الثالث من كتب البراهمة المقدسة فهو : —

(حـ) الأرانياكاس ، وهو أقل الكتب شأنا ؛ إذ أن معظمه يتضمن شرحا للتعليمات أو الإشارات التى يتبعها رجال الدين عند ممارسة الطقوس والشعائر الدينية .

٣ — أخلاق البراهمان :

قلنا إن رجال الدين من البراهمة كانوا يعدون أنفسهم الطبقة المختارة التى لها الكلمة العليا ، والسلطان النافذ فى الشعب . ومع ذلك فإنهم كانوا ينظرون إلى

العالم المادى نظرة تشاؤمية تنطوى على شىء من الازدراء ، ولم يكونوا يطمعون فى مال أوجاه .

وقد دعت الديانة البراهمية أتباعها إلى متابعة البحث عن الحقيقة أو المعرفة الحقة ، والبعد عن ملذات الدنيا وشهواتها التى تشغل فكرة الإنسان ، وتحول بينه وبين متابعة البحث عن أسرار الأشياء .

وقد شاع بين طائفة البراهمة أن البراهمى إذا زل فقد منزلته ، وانقطعت صلته بطائفته ، وأنه إذا سقط مرة فقد سقط إلى الأبد . وتقضى التعاليم البراهمية بأن على كل هندى أربعة ديون مقدسة لابد من أدائها فى حياته الدنيا — !

الأول : دين للآلهة ، ويؤديه بالتبتل ، وتقديم القرابين .

والثانى : دين للريشيين: الحكماء القدامى واضعى الفيدات ، ويؤديه بدراسة الكتب المقدسة كل يوم .

والثالث : دين للمانيس (manes) أى الأسلاف من الآباء والأجداد ، ويؤديه بأن يعقب ولدا .

والرابع : دين للإنسانية ، ويؤديه بأن يكون دائما رءوفا رحيما بأبناء جنسه ، محسنا كريما فى معاملتهم .

ومن الواجب مع هذا كله أن يكون فى كل دار نار موقدة لا يحل إطفاؤها .

الفصل الرابع

الحياة الدينية لدى الهنود قبل البوذية

(ج) الديانة الجينية :

١ — ظهر فى القرن السادس قبل الميلاد فى بلاد الهند ديانتان عظيمتان هما : (١) الديانة الجينية (٢) الديانة البوذية .

وإننا حين ندرس المذاهب الفلسفية والدينية التى ظهرت فى الهند فى القرن السادس قبل الميلاد تفجؤنا ظاهرة عجيبة ، تسترعى النظر ، تلك هى أن هذا القرن كان عصر يقظة فكرية روحانية ، ونهضة دينية ، لا فى الهند وحدها بل فى جميع البلاد الشرقية . فكأن روحا إلهية قد أشرقت فى سماء هذا الكون فى ذلك القرن ، أو كأن نفحة ربانية هبت عليه فملأت قلوب المفكرين حمية ، وبعثت فى نفوسهم رغبة فى الكشف عن خبايا الكون ، وشوقا إلى اجتلاء أسرار الحقيقة الربانية . وكانت رغبة قوية ، وكان شوقا شديدا لم يعهد لهما التاريخ نظيرا من قبل .

وقد تمثلت هذه اليقظة الروحانية فى كنفوشيوس ولا وُتزى بالصين ، ومثلها فيثاغورس فى بلاد الإغريق ، وزرادشت فى إيران ، وكثير من أنبياء بنى أسرائيل فى فلسطين .

وفى هذا القرن بالذات ظهرت فى الهند مذاهب فلسفية متعددة ، واتجاهات دينية كثيرة ، تلك المذاهب الجديدة والاتجاهات الحديثة المنطوية على صور شتى من صور الاعتقاد الدينى ، والبحث الفلسفى ، التى يبدو للباحث

أنها ظهرت فجأة لتعارض المذاهب الفلسفية والعقائد الدينية التي سبقتها إلى الظهور والاستقرار بالهند ، وإلى التمكن من نفوس أهلها ؛ ومن ثم أطلق على تلك المذاهب والعقائد المستحدثة اسم المذاهب الإلحادية ، وبلغ عددها ما يزيد على سبعين مذهبا، سلك كل منها في النظر في الإله والكون، وعلاقة كل منهما بالآخر مسلكا خاصا .

وكان من بين هذه المذاهب مذهبان وصفا بأنهما المذهبان الإلحاديان الكبيران ؛ لشدة معارضتهما للديانة البراهمانية التي كانت قائمة حينئذ ، وكان لكهنتها النفوذ الديني المطلق والمنزلة الطائفية الممتازة — على النحو الذي شرحناه من قبل . وكان هؤلاء الكهنة وأتباعهم هم الذين وصفوا هذين المذهبين وغيرهما من المذاهب المستحدثة بأنها مذاهب إلحادية، للسبب الذي ذكرناه آنفا ، ولمخالفتها للنصوص والأصول القيدية المقدسة ،التي كانت في حالة استقرار ونظام في القرن السادس قبل الميلاد .

هذان المذهبان الإلحاديان الكبيران هما : (١) المذهب الجيني ، و (٢) المذهب البوذي . ومع أن أصول هذين المذهبين تمتد إلى أعماق الماضي البعيد فإنهما لم يوضعا في صورتيهما النهائيتين إلا فيما بعد . وقد ظهر أمرهما في الهند في وقت واحد ، لغرض واحد ، هو معارضة الديانة القائمة .

وكان زعيم كل منهما معاصرا لزعيم الأخرى، وكان كل منهما ينشر تعاليمه في ماجاذا magadha في عهد بمبيسارا Bimbisnara ملك الهند المتوفى سنة ٥٢٠ ق . م .

وقد أسس الديانة الجينية ڤاردامانا Vardhamana الذي أطلق عليه لقب ماهاڤيرا Mahavira أي البطل العظيم ، وأسس الديانة البوذية جوتاما بوذا Gotama Budha . والمعروف أن الأول كان أكبر سنا من الثاني ، وأنه توفي قبله بقليل .

وقد اختلف كل من المذهبين عن الآخر فى مصيره ؛ فقد نشأ المذهب الجينى فى الهند ، واستقر بها ولم يتجاوز حدودها ، وظل أتباعه حتى الآن يستمسكون بعقائده ، ويقيمون شعائره فى إيمان وتحمس ، وينظرون إلى مؤسسه فاردامانا (الذى يسمى أيضاً نجانثا Niggantha) نظرة توقير تقرب من درجة التقديس .

أما المذهب البوذى فكان له مصير آخر ؛ ذلك أنه ما كاد يظهر حتى قوى وترعرع واشتد أزره فى الهند فى مسقط رأسه (Aryavartha أرياڤارثا) ، ودخل الهنود فيه أفواجا ، والتفوا حول مؤسسه جوتاما العظيم . ولكنه لم يلبث أن تدهور فى موطنه الأصلى ، وشق طريقه إلى جهات أخرى ، تاركا مكانه من خلفه ليشغله الدين الڤيدى أو الهندى الجديد .

ومع أن الدين البوذى قد ضعف شأنه فى موطنه الأصلى ، ولم يبق له فيه إلا منزلة ثانوية فإنه قد انتشر قويا نشيطا فى جميع أرجاء آسيا الأخرى كما سترى بعد .

٢ — الديانة الجينية :

(ا) تنسب هذه الديانة إلى جينا . وليس هذا اسم علم ولكنه صفة معناها : القاهر أو المتغلب . وقد وصفت بذلك لأن مؤسسيها عرفوا بقهر شهواتهم ، والتغلب على رغباتهم المادية .

ولم يكن المذهب الجينى — كما يصفه أعداؤه — مذهبا إلحاديا موغلا فى الإلحاد ؛ بل إنه اتخذ له طريقا وسطا بين المذهب البراهمانى والمذهب البوذى ؛ فقد أقر مبدأين من أكثر المبادىء شيوعا فى الهند ، وهما مبدأ الزهد والتقشف إلى أقصى حد ، ومبدأ الامتناع عن تعذيب الإنسان وأى نوع من أنواع الحيوان بأى صورة من صور التعذيب .

وقد اعتقد الجينيون — كما كان يعتقد غيرهم من أتباع الديانات الأخرى — أن دينهم أزلى لا أول له ولا بداية لوجوده ، ولم يكن لمؤسسيه فضل إلا أنهم رفعوا عنه الحجب ، وأطلعوا أتباعهم على أسراره .

ولم يتم هذا الكشف دفعة واحدة ، بل إنه تم بالتدرج على أيدى أربعة وعشرين من هؤلاء الحكماء (Tithakaras) أو القاهرين لأنفسهم (Jinas) ، عاش اثنان وعشرون منهم فى الماضى البعيد الذى لا يعيه التاريخ ، وأما الاثنان الأخيران اللذان يرجع إليهما الفضل فى نشر المذهب بصفة مباشرة فهما : پاركانثا Parcantha ، ويقال إنه عاش حوالى سنة ٨١٧ ق . م وڤاردامانا مهماڤيرا أو نجانثا ، وهو الذى أحيا هذا المذهب وأحكم وضعه ، ونشره فى القرن السادس قبل الميلاد ، وتوفى حوالى سنة ٥٢٨ ق . م أو سنة ٤٨٠ ق . م

ولم يكن مهماڤيرا بدعا من مؤسسى الأديان الأخرى ؛ فقد أحاطت الأساطير حياته — منذ الحمل به إلى ظهوره — بسياج من الحكايات والنوادر غير العادية التى تحكى عن أمثاله ولا يتسع المقام لذكرها .

(ب) ويعد البراهمة المذهب الجينى مذهباً إلحادياً كما قلنا من قبل ؛ لأنه بالإضافة إلى استنكاره نظام الطبقات الذى وضعوه ، وعدم اعتداده بما يدعيه كهنة البراهمة لأنفسهم من منزلة رفيعة دون سائر الطوائف — فإنه ينكر المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه البراهمية ، ذلك هو مبدأ الوحدة الإلهية التى تقرها الأوپانيشادات ، ويعتنق مبادىء أخرى تخالف ذلك المبدأ .

ذلك أن الجينيين مع اعترافهم بأن الكون تحتله روح مستقلة ، ومع اعتقادهم فى مبدأ تناسخ الأرواح تبعاً لمبدأ الكارما — فإنهم قالوا إن الإنسان أيضاً مزود بروح مستقلة لا علاقة لها بروح الكون ، وليس مصير روح الإنسان أن تندمج فى روح الكون ، بل إنها تبقى مستقلة خالدة .

وليس الإنسان وحده هو المزود بروح مستقلة خالدة ، بل إن كل حيوان ، وكل نبات مزود بها أيضا . وليس هذا فحسب ، بل إن كل ذرة من ذرات الكون مزودة بروح مستقلة خالدة خاصة بها ، سواء فى ذلك التراب ، والنار ، والماء ، والهواء .

ومن ثم يقولون بأن فى العالم بلايين البلايين من الأرواح المستقلة الخالدة . هذا على الرغم من أن هذه الأرواح على اختلاف درجاتها تخضع لمبدأ التناسخ الذى يسيطر عليه مبدأ الكارما . ولم يؤثر عن الجينيين تفسير واضح لهذا المبدأ الذى يجعل مذهبهم فى عداد مذاهب الكرياڤادات Kriyavadas ، التى تقول بأن الأعمال تؤثر فى طريقة تناسخ الأرواح ؛ فإذا كانت تلك الأعمال أعمال خير ارتقت الروح ، وإلا تدهورت وانحطت درجتها .

(ج) وللجينيين فى الكارما عقيدة خاصة امتازوا بها دون غيرهم ، ذلك أنهم لم يعتقدوا كما كان يعتقد السابقون أن الكارما أمر اعتبارى هو مبدأ العلةوالمعلول، الذى يحمّل الإنسان تبعة أعماله ، ويجعل هذه الأعمال مسئولة عن طريقة تناسخ الروح ، ولكنهم يعتقدون أن الكارما كائن مادى ، أو صورة من صور المادة يخالط الروح ، كأنه يمسك بتلابيبها ، أو يحيط بها كما تحيط الشرنقة بالفراشة . ولا سبيل إلى تحرير الروح من ربقة هذا الكائن إلا شدة التقشف والحرمان من الملذات فى كل مرحلة من مراحل الحياة ، فهذه وحدها هى وسيلة تحرير الروح ، وحياتها حياة أبدية حرة .

وفى ذلك يقول الكتاب المقدس لدى الجينيين :

« كما تتحد الحرارة بالحديد ، وكما يمتزج الماء باللبن كذلك يتحد الكارما بالروح ، وبذلك تصير الروح أسيرة فى يد الكارما » .

(د) ويعتقد الجينيون بوجود عدد من الآلهة أو الـكائنات المقدسـة ، وفى مقدمة هؤلاء الأربعة والعشرون جينا الذين نُزِّلوا منزلة الآلهة ، يضاف إليهم ثلاثة وستون من الكائنات العظمى ، ومجموعة كبيرة من الأرواح والـكائنات الطبيعية الطيبة أو الشريرة .

ومع ذلك يبدو أنه لم يكن للاعتقاد فى هذه الآلهة مكانة تذكر فى العقيدة الجينية التى تفرض على أتباعها اتباع طريق مرسوم يفضى إلى النجاة .

(هـ) فعلى كل جيني أن يلتزم التزاما تاما وسائل الإنقاذ من ربقة الـكارما ، وهى الفضائل الثلاث ، أو الجواهر الثلاث فى الديانة الجينية ، أعنى :

١ — الإيمان الصادق ، و

٢ — المعرفة الصحيحة ، و

٣ — السلوك الحسن .

ويقصد بالإيمان الصادق : الإيمان بالجينائين واضعى المذهب ، الذى هم مصادر المعرفة الصحيحة ، وبخاصة ما كان منها متعلقاً بعناصر الـكون الستة التى سيأتى بيانها :

وتتضمن المعرفة الصحيحة : الاعتراف بالإنقـاذ النهائى ، وبأن كل كائن يستمتع بالحياة .

ويدخل فى السلوك الحسن الوفاء بخمسة عهود وهى :

١ — عدم القتل ،

٢ — عدم الـكذب ،

٣ — عدم السرقة ،

٤ — التمسك بالعفة ،

(ﻫ) الزهد فى الملكية .

وليس من الضرورى على غير الرهبان من النساء والرجال المدنيين الغلو فى الوفاء بالعهدين الأخيرين ، بل عليهم باعتبارهم أفراداً فى أسرات أن يفوا بعهود أخرى .

(و) وعلى الراهب — بالإضافة إلى الوفاء بالعهود الخمسة على أكمل وجه اثنتى عشرة سنة — أن يلتزم جانب الحيطة والحذر فى تصرفاته ، وأن يضبط نفسه إلى أقصى حد ، وأن يؤدى جميع الواجبات المفروضة عليه باعتباره راهبا ، وفى مقدمة ذلك المثابرة على التأمل الروحانى .

ويحرم على الجينى أن يقتل أو يهلك أى كائن ، سواء فى ذلك الحيوان والنبات والجماد . ومن ثم كان عدم إلحاق الضرر بأى كائن من مقومات العقيدة الجينية ، وكان الخوف من إيذاء المخلوقات يلازم الراهب فى كل عمل يقوم به .

ويحرم كذلك أكل اللحوم ، ويغلو الرهبان فى تطبيق هذين المبدأين فيضعون على أفواههم وأنوفهم شبه كمامة تمنع دخول أى كائن حى فيها عند التنفس . وحين يمشون فى الطريق يمسك الواحد منهم بيديه مكنسة يكنس بها الطريق خشية أن تطأ قدماه كائنا حيا صغيرا ريثما فيموت .

وعلى الراهب أن يضبط نفسه ضبطا تاماً ، فلايسمح لجسمه ولا للسانه ولا لعقله بمخالفة الفضائل الثلاث الآنف ذكرها :

وعليه أن يقمع شهواته ويجنب نفسه الشعور بالآلام أو المضايقات ، وهى اثنتان وعشرون ، منها : الشعور بالجوع أو العطش ، أو البرودة أو الحرارة ، والشعور بضيق الصدر إذا قرصته بعوضة أو نملة ، والشعور بالخزى أو الخجل عند العُرْى ، وعدم الهدوء عند رؤية امرأة جميلة ، والأسف لعدم وجود فراش ينام عليه ؛ فمن المحرم عليه أن ينام على فراش ، والشعور بالغضب أو بعدم الرضا

بحاله ، والتألم من المرض ، أو من جرح قدميه إذا مشى على الشوك ونحوه .

وبعد أن يلتزم الراهب الجيني هـذه الرياضات النفسانية فى دقة وصرامة اثنتى عشرة سنة يسمح له بالاستمتاع بنعمة الموت جوعا ؛ كى تنقطع أعماله التى فى كل منها مظنة إلحاق الضرر بكائن من الـكائنات المزودة بالأرواح ، واحتمال سوء التأثير فى طريقة تناسخ روحه . وتلك منزلة سامية تدل على أن الراهب قد وصل إلى أسمى درجات الزهد والتقشف ، وتؤدى إلى تحرير روحه تحريراً تاماً ، وإنقاذه من هذه الحياة ، وعدم اضطراره إلى أن يحيا فيها فى المستقبل مرة أخرى .

ولا توضح الديانة الجينية هذا الإنقاذ توضيحاً تطمئن إليه نفس الباحث ، وكل ما يمكن فهمه من ذلك أن الأرواح الجزئية لا تتصل بالروح الـكلية ، ولا تندمج فيها — كما يقول البراهمة ، ولـكنها ترحل إلى عالم الخلود فى مكان ما يشبه الجزيرة .

(ز) وللجينيين عقيدة ثنائية فى العالم ، تلك هى : أن العالم كله يتـكون من كائنين أو عنصرين هما :

١ — جيڤا ، أى الشعور ، و ٢ — آجيڤا ، أى اللاشعور .

فجيڤا Jiva هو الروح ، وله من الذكاء ، والهدوء ، والإيمان حظ وافر لا حد له . ومع ذلك فإنه يفقد هذه الصفات إذا اتصل بالمـادة ، حيث تغمره الـكارما وتحد نشاطه .

ويختلف الجيڤا الذى يحل بالإنسان فى حجمه باختلاف أجسام الناس التى تحتلها فى الحجم . ومعنى هذا أنه يساير الجسم فينكمش فى الجسم الصغير ، ويكبر حجمه فى الجسم الـكبير .

وأما العنصر الثانى وهو آجيڤا أى اللاشعور فهو مادة فى صور مختلفة ، ومن

صورها الزمان والمكان ، فهما ماديان فى نظر الجينيين ، ومن صفات المادة الحركة ، والسكون .

وبذلك تكون عناصر الكون على وجه التفصيل ستة هى : الروح ، والمادة والزمان ، والمكان ، والحركة : ثارما Tharma ، والسكون : آثارما Atharma .

وليس من المعروف على وجه التحديد الطريقة التى بها يتحد الجيفا بالآجيفا ، ولا ما إذا كان هنالك عنصر أو مبدأ خاص يؤلف بينهما ؟ ومن ثم كان فى هذه العقيدة الثنائية شيء من الغموض .

وتمضى العقيدة الجينية فتصف الروح والمادة بعدة صفات ، ولكنها لا توضح مصير كل منهما . والخلاصة أن العقيدة الثنائية أبرز مواطن الضعف فى الديانة الجينية .

ز — وقد ظل أتباع هذه الديانة متحدين فى حياة رئيسهم ، حتى إذا ما هلك انقسموا على أنفسهم ، وحدثت بينهم خلافات ، أشهرها الخلاف فيما إذا كان يجوز أو لا يجوز للجينى أن يغطى جسده بالملابس ؟ فأباحت طائفة منهم ذلك ، على أن تكون الملابس بيضاء ، وأنكر ذلك طائفة أخرى ، وهم الذين سموا أنفسهم : « لابسى السماء » أو « لابسى الهواء » . وقالوا إن ارتداء الملابس دليل على الشعور بالخزى أو الخجل عند العرى ، وهذا يخالف مبدأ أساسيا هو : إنكار الذات ، وعدم الاعتداد بما يضايقها .

ح — ولا يزال للجينيين على قلة عددهم نفوذ عظيم فى الهند ؛ فمع أنهم ابتعدوا من الاشتغال بالزراعة خوفاً من إلحاق الضرر بالأحياء فقد شقوا طريقهم فى الحياة بتناول أعمال أخرى كالأعمال التجارية ، وبخاصة إقراض النقود الذى يقل فيه احتمال الاعتداء على الأحياء إلى أقصى حد . وكان اشتغالهم بالتجارة سبباً فى ثرائهم ، واحتلالهم منزلة رفيعة بين أبناء جنسهم .

وقد كان لهم الفضل فى النهوض بفن المعمار ؛ فبينما كانت أوربة تعنى بفن المعمار القوطى كان الجينيون يفتنون فى إقامة المعابد الضخمة ، ونحت الأضرحة العظيمة فى كهوف إيلورا وجبل آبو .

وإذا علمنا أن عقيدة الزهد والتقشف والبعد عن إلحاق الضرر بأى كائن حى — مهما يبلغ من الحقارة — قد تمكنت من نفوس الجينيين إلى أقصى حد فإننا لا نعجب إذا رأينا أتباع هذا المذهب من رهبان وغير رهبان وقد مضى على ظهور مذهبهم حوالى ثمانين جيلا ، أى ما يقرب من ألفين وخمسمائة سنة — لايزال الواحد منهم يرتجف حين يمشى أو يتنفس خشية أن يكون مشيه أو تنفسه سببا فى هلاك كائن حى .

ولسنا نعلم أن ديانة أخرى غير الجينية قد وصلت إلى هذا الحد من التقشف والتحرج .

الفصل الخامس

بواذجو تاما ــ طفولته وشبابه

١ — يجب أن نذكر فى مستهل حديثنا عن هذا الرجل العظيم أن بوذا ليس اسم علم على شخص ، وإنما هو لقب شرف دينى عظيم ، معناه : الحكيم ، أو المستنير أو ذو البصيرة النفاذة . ولا يطلق فى اصطلاح المتدينين من الهنود إلا على كل من هؤلاء الأفراد القليلين من بنى الإنسان الذين جاهدوا جهادا روحيا عنيفا لاحد له ، فى غير ملل ولا ضجر ، فى سبيل الوصول إلى الحق الثابت والحقيقة الربانية ، هؤلاء الذين غالبوا أنفسهم فغلبوها وسيطروا عليها ، فجردوها من جميع الشهوات المادية والرغبات الحيوانية ، فاستطاعت بذلك أن تصفو وتسمو ، وتصل إلى أعلى درجات الصفاء والسمو الروحانى ، وتصبح أهلا لأن تتصل بالملأ الأعلى حيث تلتقى بالقوة المقدسة التى يعجز العقل البشرى عن إدراك كنهها ، ولا يستطيع الخيال الإنسانى — مهما يبلغ من القوة والدقة — أن يحيط بصفاتها .

ويرى البوذيون أن بوذا أو حكيما جديدا يظهر فى العالم فى كل عصر ليلقن الناس العقيدة الصحيحة ، وأنه بعد فترة معينة من الزمن تفسد هذه العقيدة ويسىء الناس فهمها ، أو تنقرض ولا تعود إلى الصحة أو الحياة إلا بعد أن يظهر بوذا آخر يتم على يديه إصلاحها أو إحياؤها .

وحين يطلق اسم بوذا ينصرف إلى بوذا الأكبر أو بوذا الأخير ويسمى

بأسماء مختلفة أشهرها سـدّارثا Siddartha أو جوتاما Gautama .

ويعتقد البوذيون أن مئات من السنين قد مرت قبل وصول بوذا جوتاما إلى مرتبة البوذية ، أو المرتبة الأرهاطية كما يسمونها . نعم إنه وصل ثلاثة من قبل جوتاما هذا إلى تلك المرتبة ، ولكنهم لم يبلغوا ما بلغ من العظمة ، ولم يظفروا بما ظفر به من النجاح فى الدعوة والهداية . وإن الهنود — على ذلك ، حتى بعد ظهور جوتاما ووفاته — لايزالون يرتقبون ظهور بوذا آخر ينقذ العالم مما فيه من بؤس وشقاء .

٢ — وقد أحيطت حياة بوذا هذا بكثير من الأساطير والخرافات التى طمست معالم الحقيقية حتى ظن بعض المؤرخين أن حياة بوذا نفسها أسطورة مزعومة ؛ ففى سنة ١٨٤٥ ألقى الأستاذ وليامز أحد الأساتذة بجامعة أكسفورد أمام اللجنة الآسيوية الملكية بلندن محاضرة ادعى فيها أن ما يقال عن حياة بوذا المزعومة ليس إلا أسطورة ، وأن وجود هذا الرجل نفسه من نسج الخيال الذى لاظل له من الحقيقة .

ولكن هذا رأى لا يعتد به الآن ؛ فقد كان من الممكن بعد دراسة الحوادث الخارقة للعادة المنسوبة إلى بوذا استخلاص كثير من الحقائق التى لا يكاد أحد يشك فى صحتها ، وهى تفيد أن بوذا وجد فعلا ، وأن البوذية تستند إلى أساس تاريخى يوثق به .

فمن هذه الحقائق أن بوذا جوتاما كان ينتمى إلى قبيلة ساكياز Sakyas . أن هذه القبيلة كانت تقيم فى قطعة من الأرض مساحتها حوالى ثلاثة آلاف ميل مربع فى إقليم نيبال Nepalese ، على مقربة من خط العرض رقم ٣٧َ ر ٢٧° شمالا ، ومن خط الطول رقم ١١َ ر٨٣° شرقا . وكانت عاصمة نيبال وأعظم مدنها مدينة تسمى كابيلاڤاستو Kapilavastu .

كان الأمير سدارثا الذى قدر له أن يكون بوذا عصره ابن سود. ذودانا Suddhodana وولى عهـده ، وكان أبوه هذا ملـكا على قبيلـة ساكياس بإقليم نيبال فى القسم الشمالى من الهند الوسطى ، ذلك الإقليم الذى حددنا موقعه من قبل .

وقد تولى هذا الملك عرش سـاكياس لأنه كان أكبر أبناء ايشفاكو Ishvaku ، الذى يرجع أصله — كما تروى الأساطير الهندية — إلى شعب معين يسمى شعب الـكشاتريين Kshattriyas الذين ينسبون إلى الشمس ، ومن ثم كان ينتمى إلى إحدى الطوائف الهندية التى كان يطلق عليها : طوائف الأبطال .

وكان مسقط رأس سدّارثا حديقه لومبينى Lumbini على مقربة من مدينة كابيلا ڤاستو عاصمة نيبال ، وكان لها الشرف أن سميت باسم كابيلا أحد زعماء الفلاسفة الهنود الستة الذين أسسوا مذاهب فلسفية عظيمة قبل ظهور البوذية بنحو قرن . ويقال إن أنقاض هذه المدينة لاتزال ماثلة فى الجزء الجنوبى من إقليم نيبال .

ولم يعرف مسقط رأس جوتاما بالضبط إلا حوالى سنة ١٨٩٥ حيث عثر على نصب من الصخر كان قد أقامه هنالك فى القرن الثالث قبل الميـلاد (فيما بين سنة ٣٧٠ ، وسنة ٢٢٧ ق . م) أسـوكا Asoka الإمبراطور البوذى ، ودون عليه نقوشا تذكارية لا تزال واضحة كما كانت يوم كتبت تقريبا .

ويكاد يكون من المتفق عليه الآن أن سدّارثا ولد حولى سنة ٥٦٨ ق . م ، وقد أمكن الوصول إلى هذا التاريخ بتحديد تاريخيين آخرين وإضافة أحدهما إلى الآخر ؛ الأول تاريخ جلوس آسوكا العاهل البوذى الذى سيأتى ذكره على

عرش ملكه ، والثانى المدة التى مضت بين وفاة بوذا وبين ذلك التاريخ .

أما ذلك التاريخ فقد أمكن تحديده بأن آسوكا هذا ذكر فى أحد النصوص المأثورة عنه اسم ملك من ملوك الإغريق كان معاصرا له . وقد قدر الباحثون استنادا إلى ذلك أن جلوس آسوكا على عرشه كان حوالى سنة ٢٧٠ ق . م .

ويؤخذ مما ورد فى تاريخ سيلان أن المدة التى مضت بين وفاة جوتاما وجلوس آسوكا على عرشه تقدر بحوالى سنة ٢١٨ . فإذا أضفنا ٢١٨ إلى ٢٧٠ عرفنا السنة التى توفى فيها بوذا وهى سنة ٤٨٨ ق . م . وإذا فرضنا صحة ما يقال وهو أن بوذا توفى وعمره ثمانون سنة قلنا إنه ولد حوالى سنة ٥٦٨ ق . م . ويقدر أهل بورما وسيام وسيلان أن آسوكا جلس على عرشه حوالى سنة ٣٢٥ م ، ومن ثم يجعلون مولد سدّارثا حوالى سنة ٦٢٣ ق . م ووفاته سنة ٥٤٣ ق . م .

ويجب أن نقرر أن هذه التواريخ كلها تقريبية قابلة للتعديل إذا جد ما يقتضى تعديلها .

٣ — وتبدأ الروايات المتعاقبة التى أحاطت حياة بوذا الأكبر بأساطير ونوادر خارقة للعادة لا يحصى لها عدد بالأسطورة المروية عن الكائنات الروحانية التى تسكن الملأ الأعلى ، وكان لها تأثير فى خلق بوذا هذا .

وتحدثنا هذه الأسطورة أن روح بوذا جوتاما (= البعيد النظر) حين تحققت أنها عما قريب ستحل بجسم هذا المنقذ المنتظر فى الأرض اطلعت على الأرض لتختار له خمسة أشياء هى : عصر ظهوره ، والقارة التى سيظهر بها ، ومسقط رأسه ، وموعد ولادته ، والأم التى ستلده . وقد وقع اختيارها بعد طول البحث والاستطلاع على أن يكون ظهور بوذا الأكبر فى بلاد الهند ، بمقاطعة نباليس . وعلى أن تكون « ماه مايا » محظية ملك ساكياس — دون غيرها من النساء — أما لذلك المنقذ المنتظر .

وقد قيل فى ظروف الحمل بهـذا المنقذ ما قيل فى غيره من كبار الحكماء

والأنبياء ، فقد روى أن أمه رأت رؤيا خيل إليها فيها أن ابنها هبط من السماء ، واستقر فى رحمها فى صورة فيل أبيض . وقد رأت الفيل يقترب منهـا ويلمس جنبها بأنيابه ، كما تراءى لها فى أحلام النوم ، وأحلام اليقظة ذلك المستقبل العظيم الباهر الذى ينتظر ابنها السعيد الطالع .

وقبيل أن تضع ماه مايا ابنها شعرت بدافع قوى يدفعها إلى أن تذهب وترى أهلها وعشيرتها ، فاستأذنت الملك فى السفر إلى موطنهـا وموطن أبيها وأهلها فأذن لها . وقد شاهدت فى طريقها ، وهى محمولة على هودج — حديقة مزدانة ببراعيم أشجار السال ، مزدهرة بأنواع الرياحين والزهور العطرة التى تنبعث منها روائح طيبة زكية فتملأ أرجاء الفضاء . وأعجبها هذا المنظر الجميل فطلبت إلى حراسها أن يسمحوا لها بأن تستريح فى هذا المـكان فترة قصيرة ، فأجابوها إلى رغبتها . وبينما هى فى هذه الحديقة الغناء الحافلة بأنواع الزهور والرياحين جاءها المخاض فجلست تحت شجرة من أشجار السال وهناك وضعت ابنهـا فسمته سدّارثا أى محقق الآمال ، وكان ذلك حوالى سنة ٥٦٨ ق م .

هذه الحديقة هى حديقة لومبينى التى سبق ذكرها . ويقال إن أحد فروع الشجرة التى جلست ماه مايا تحتها قد تدلى فأمسكت به ، وتوكأت عليه فخفت آلام الوضع . كما يقال إن زوجة جوتاما ولدت يوم ولد ، وإن الله خلق فى اليوم نفسه نوعا من الأشجار يسمى شجر البـــو :(Bo - Tree)الذى قدر لبوذا الأكبر أن يجلس تحت شجرة منه فى أيام تبتله .

٤ — وقد ذكرت تنبؤات متعددة تبشر بمولد جوتاما ، ورويت حوادث غير عادية حدثت بعد ولادته ؛ فقد قيل إن ميلاده قد تم فى مايو أحد شهور الربيع المشرق ، فى ليلة مقمرة كان القمر فيها بدراً تاما ، وأن الأرض زلزلت يوم ولد .

وأن مطراً خفيفاً سقط على الأرض على غير ميعاد ، وأن براعم الزهور وأكمام الثمار قد تفتحت، وأن رائحة طيبة زكية انتشرت وعمت جميع أرجاء الفضاء ، وأن مياه البحار قد استحالت فصارت عذبة سائغة للشاربين .

كما قيل إن سيدراثا تكلم عقب ولادته ، وصاح صيحة النصر والظفر ، وخطا سبع خطوات ، ونظر إلى جهات الأرض العشر ، ليتأكد لديه أنه ليس فيها كائن مثله ، كما يزعمون . والجهات العشر هى الأوج ، والحضيض ، والجهات الأربع الأصلية ، والجهات الأربع الفرعية .

ويروى أنه قد حضر ولادته بعض الآلهة ، وفى مقدمتهم إندرا ، وأن أربعة من ملائكة براهما قد تلقوه عند الولادة ، وأن آسيتا Asita الريشى العظيم الذى كان يقيم فى جبال هماليا أنبأته الملائكة أن المنقذ المنتظر قد ولد، وظهر فى الأرض فى حديقة لومبينى ، وأنه سيدير عجلة الإيمان ، ويحول تيار العقيدة فى هذا الزمان .

وأسرع آسيتا فى السفر ، وجد فى الرحيل ؛ ليقدم لمعلم الإنسانية المرتقب فروض الولاء ، وآيات الترحيب والوفاء . ولما وصل إلى قصر الملك أبدى رغبته فى أن ينعم برؤية المولود الجديد ، ويسعد بمشاهدة طلعته . فأمر الملك باستدعاء الطفل تحقيقا لرغبة الريشى العظيم؛ ليراه ويبارك عليه ، ويدعو له بالخير. فما إن رآه الريشى حتى ابتسم ثم بكى . وذعر الملك وعرته نوبة من القلق والاضطراب ، فأقبل على الريشى يسأله عن السبب فى البكاء بعد الابتسام ، وعن السر فى الترح بعد الفرح ، وعما إذا كان قد شاهد فى الطفل ما يدعو إلى التشاؤم . فأجاب الريشى : لست أرى فى الطفل ما يدعو إلى قلق أو تشاؤم ، ولقد سررت فابتسمت حين علمت أن لهذا الطفل مستقبلا باهراً ، ينمو فيه نمواً روحانياً كاملا ، وأنه سوف يكون بوذا العصر ، ومعلم البشر . وإنما بكيت أسفا على

نفسى ؛ لأن حياتى قصيرة تؤذن شمسها بالمغيب ، فلن أعيش حتى أرى مبادىء بوذا السامية تنتشر فى الأرض ، وتمحو منها الشقاء ، وتكشف عنها البلاء .

وروى أن الملكة ماهامايا توفيت بعد مولد ابنها بسبعة أيام . وهذا مطابق لما ورد فى الكتب البوذية المقدسة وهو أن « الرحم الذى حل به بوذا المستقبل لا يمكن أن يستقر به كائن آخر ، مثله فى ذلك مثل الضريح فى الهيكل لا يدفن فيه أكثر من شخص واحد ، من أجل هذا توفيت والدة بوذا المستقبل وعمره سبعة أيام ».

٥ — ولقد كانت هذه التنبؤات التى رويت عن مستقبل سدارتا من أسباب شقاء أبيه وضيق صدره ؛ فإن ابنه الأمير هو ولى عهده ، وهو الوارث للقب البطولة السماوية من بعده . وقد شاع بين الناس حينئذ أن هذه التنبؤات تدل على أن هذا المولود سيكون ملكا عاليا عظيما أو زعيما دينياً كبيراً ، وقد رغب الملك فى قرارة نفسه أن تكون هذه التنبؤات دلائل على نجاح ابنه فى حياته المادية الدنيوية ، لا فى حياة روحانية تباعد بينه وبين وراثة العرش واللقب . ولكى يحقق هذه الرغبة الكامنة فى أعماق نفسه قرر أن يحول بين ابنه وبين الاختلاط بالناس ، وأن يجعله يحيا حياة عزلة بمنأى عما يعانيه الناس من عناء ، وعما يشقون به من صراع فى سبيل البقاء ، فأمر بأن يبقى ابنه فى القصر الملكى لا يغادره ، ولا يرى شيئاً من الأشياء الأربعة التى قيل إنها ستحمله على الزهد فى الدنيا وزخارفها ، وهى : شيخ هرم بلغ به الضعف أقصاه ، ورجل أصابه البرص فشوه بشرته ، وجثة ميت يشيعها المشيعون ، وراهب متبتل انقطع للعبادة .

وظل سدارتا فى القصر يستمتع بجميع أنواع الترف والنعيم ، ويحظى بكل ما يهوى من ضروب الفرح وأنواع السرور ، وكان هناك بمثابة أسير ، لا يصحبه

أحد ، ولا يختلط بإنسان غير زوجته الأميرة ياسوذارا Yasodhara بنت أحد زعماء قبيلة كولى التى كانت مجاورة لقبيلة ساكياز ، وقد تزوج منها بعد أن بلغ السادسة عشرة ، وولدت له ابنه راهولا Rahula • وكان يسمح له كذلك بالاختلاط بالأمراء والنبلاء وفتيات القصر .

ورأى الملك ولى عهده يستمتع بذلك النعيم ، ويسعد بذلك الترف ، يحيط به الأمراء والنبلاء ، وتلتف حوله فتيات القصر ، وتشنف سمعه ألحان الموسيقى الطربة ، ويمتع نظره برؤية الماء المتدفق من نافورة الماء القامة فى حديقة القصر — رأى الملك هذا كله فأعجبه ، وتملكه الفرح ، واعتقد فى قرارة نفسه أنه قد نجح فى تحديد مصير ابنه ، وأن نجم النصر الذى أشرق على جبينه يؤذن بأنه سيأتى للعرش بالسيادة والسعادة ، وبأنه سيكون فى عداد أبطال السماء •

٦ — ولكن روح بوذا المستقبل ، التى كانت وليدة تطور وتحول استمر آلافا من السنين قد تحركت فى جسده ، فجعلته يشعر بشىء غير قليل من القلق والاضطراب ، على الرغم مما يحيط به من أسباب الترف ومظاهر النعيم • وقد شعر بوحشة موحشة حين وجد نفسه فريداً ، يركب جواده ، ويسير به فى جوانب حدائق القصر ، ولا مؤنس له إلا تشانا Channa خادمه الأمين ، وسائس جواده الوفى .

لقد حرم الملك على الناس أيا كانوا أن يدخلوا القصر ، وفرض عقوبة شديدة على كل من يسمح من خدمه لأجنبى بدخول القصر ، وأمر ألا يكون فى حدائق القصر أى مظهر من مظاهر البؤس ، أو أية علامة من علامات الشقاء التى يعانيها الإنسان فى هذه الحياة ، وبخاصة الأشياء الأربعة الآنف ذكرها •

ولكن سدارتا — على الرغم من تلك الإنذارات والاحتياطات الشديدة

شاهد تلك الأشياء الأربعة[1] واحداً واحداً ، فكانت سبباً فى شدة ألمه ، وعمق أسفه وحزنه ، وزلزلة سعادته ، والقضاء على ذلك السراب الخلاب : سراب الحياة المادية المترفة ، التى حرص والده على أن يحظى بها خلال السنين الطوال . وقد شاء القدر المحتوم أن يرى الأمير تلك الأشياء الأربعة ؛ ليتغير مجرى حياته ، ويسلك المسلك الذى أعدته له العناية الإلهية .

فبينما كان يجول فى فناء القصر راكبا جواده — كما كانت عادته — إذا به يرى شبحا مخيفاً تمثل له شيخا هرماً ، نحيفاً ناحل الجسم ، مجعد البشرة ، مقوس الظهر ، يمشى متثاقلا كأنما يجر وراءه أعباء الدهر وأثقال الحياة .

رأى سدارثا ذلك فأدركه الفزع ، وأمسك بزمام جواده ، وأوقفه ، والتفت إلى تشنا وقال : أى نوع من أنواع المخلوقات هذا الذى أرى ؟ فأجاب تشنا : إنه شيخ هرم ، أكل عليه الدهر وشرب . فقال سدارثا : أكان هذا الشيخ هنا دائماً ؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف وصل إلى حالة الشقاء والبؤس التى هو عليها الآن ؟ فأجاب تشنا : إن هذا هو مصير كل إنسان ؛ لا أستثنى أنا ولا تستثنى أنت من ذلك أيها الأمير ؛ فكل منا لابد أن ينتقل من مرحلة الشباب إلى مرحلة الرجولة ، ومن ثم إلى مرحلة الكهولة والشيخوخة ، إن هذا قضاء حتمى لابد منه ، ولا محيد عنه .

ورأى سدارثا منظراً آخر ، ولكنه كان هذه المرة رجلا مصابا ببرص شوه بشرته أبشع تشويه .

ثم رأى منظراً ثالثـــاً كان أدهى وأمر ، وأدعى إلى الكآبة

---

(١) اختلف المؤرخون فى أمر هذه الحوادث الأربع ، حتى ان بعضهم أنكرها وقال إنها لم تكن حوادث وقعت بالفعل ، وإنما كانت خيالات وأوهاماً دارت بنفس سدارثا .

والحزن ؛ لقد كان منظر جنازة ميت ، رأى فيه المشيعين أمام عينيه يلتفون حول الجثة الهامدة الخامدة ، جثة رجل كان يستمتع بالحياة والشباب . وقد كان يقال له من قبل إن الأحياء قد ولدوا ليعيشوا مثله فى نعيم دائم ، لا يجد البؤس والشقاء إليهم سبيلا .

نعم لقد كان يلقى فى روعه أن هـذه الحياة حياة ترف ونعيم ورفاهية . ولـكنه رأى بعينى رأسه الشقاء مجسما فى أبشع صوره ، يمثـله الشيخ الهرم ، والأبرص ، والجثة الميتة ، فاضطرمت نفسه ، وتمزقت نياط قلبه أسفا على هؤلاء الأشقياء من بنى الإنسان الذين يعانون آلام الحياة ، ويشربون كئوسها المرة المترعة أشكالا وألوانا .

٧ — شعر سدارتا هذا الشعور المؤلم ، ولم يلبث شعوره أن انقلب رغبة شديدة ، وشوقا ملحا فى أن يدرك أسرار هذه الحياة ، ويعرف الأسباب التى بها تنقذ هذه الإنسانية المعذبة من آلامها الدائمة ، وتتخلص من شقائها الذى لا ينقطع .

وتمـكنت هذه الرغبة من نفسه ، وملـكت عليه زمام حياته ، فتخيل صورة لحياة إنسانية سعيدة ، ولم يبق على روحه المضطرمة المضطربة إلا أن تبحث عن طريق به يصل إلى تلك الحقيقة : حقيقة الحياة السعيدة التى تنقذ الإنسان من آلامه وشقائه .

وبينما يتأمل ويتبصر ، ويفـكر ويتدبر راجيا أن يلهم طريق الوصول إلى غرضه إذا به يرى المنظر الرابع بعينى رأسه أو بعينى خياله ؛ ذلك هو شبح راهب متبتل ، يرتدى رداء أصفر ، يوحى منظره بالشجاعة ، وضبط النفس ، والسيطرة

عليها ، ويبدو كأنما يأمر سدارثا أن يهجر جميع مظاهر الترف والنعيم الذى يغمره ، ويدعوه إلى أن يلقى بنفسه فى خضم العالم الروحانى ، ويجد فى الطلب والبحث ، حتى يصل إلى الحقيقة التى قد تنقذ الناس مماهم فيه من بؤس وشقاء .

وسرت هذه الفكرة الموقظة الآمرة بطريق الإلهام من ذلك الراهب المتبتل إلى نفس تاثاجاتا (Tathagata = المنقذ المنتظر أو المستنير الكامل) فنشطت قواه الروحانية ، وعقد العزم على أن يسير فى طريقه ؛ بغية الوصول إلى غرضه .

٨ — كان سدارثا قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره حين أصبح على أبواب حياته الروحانية العظيمة ، وحين عزم عزما مؤكداً على أن يهجر الحياة المادية بجميع مظاهرها الخلابة ، ويلقى بنفسه فى خضم الحياة الروحانية الحقيقية .

وانتظر — قبل تنفيذ رغبته — حتى انتصف الليل ، وغط فى النوم جميع من فى القصر ، فقام تحدوه العزيمة المصممة ، ويدفعه الأمل الوثاب الممزوج بشىء غير قليل من الأسف ، فمر فى هدوء ورفق بغرفات القصر ، فودع زوجه وابنه ، وجميع من يحب فى القصر ، وكانوا جميعا فى نوم عميق ، فلم يشعر به أحد .

ثم ذهب إلى فناء القصر ، وأيقظ خادمه الأمين تشانا ، وطلب إليه أن يسرج جواده ويلجمه ، فصدع الخادم بالأمر ، وركب الأمير جواده ، وخرج وفى صحبته تشنا ، وتوجه نحو باب القصر فوجده مفتوحا على مصراعيه ، فاقتحمه ، وخرج عاقداً العزم على ألا يدخله مرة أخرى وهو أمير .

ويروى أن خروجه كان فى شهر يولية والقمر بدر . وقيل إن الملائكة أغلقت فم الجواد حتى لا يصهل ، ومنعت حوافره أن تلمس الأرض حتى لا يسمع صوتها ، وفتحت أبواب القصر جميعها وكانت محكمة الإغلاق .

لقد خرج سدارثا من القصر تاركا وراءه الحدائق الغناء ، وأسباب السعادة المصطنعة التى صنعتها يد الإنسان ، ومستقبلا أمامه فى طريق البحث عن الحقيقة

الخالدة تلك الحياة التقشفية القائمة على أنواع من الرياضيات الروحانية التى لا يولع بها إلا من ينصب نفسه ليكون منقذا للإنسانيه تلك هى : الزهد ، والحرمان ، والتضحية ، والاستشهاد فى سبيل الحق . وأغذ السير شاعراً بأن روحه قد تخلصت من قيودها المادية .

وما زال يجد فى السير حتى وصل إلى شاطىء نهر أنوما Anoma . وهنالك قطع شعره بحد سيفه ، وخلع جميع ما كان يتحلى به من أنواع الجواهر ، وأعطاها خادمه تشانا ، وطلب إليه أن يذهب بها إلى القصر بمدينة كابيلاڤاستو ، وينبىء أباه حديثه ، ويخبره بالغرض الذى من أجله هجر القصر ، وزهد فى حياة النعيم المادى .

الفصل السادس

جوتاما فى جهاده الروحانى

---

١ — أقام سدّارثا على شاطىء نهر أنوما ، وظل سبعة أيام يفكر فى الطريق الذى يسلكه ليصل إلى غرضه . وبينما كان هنالك إذ رأى متسولا يستجدى الصدقات ، فأحسن إليه ، ثم طلب منه أن يستبدل ملابسه بملابسه ، فقبل المتسول ، ولبس الأمير ملابس الدراويش المتسولين ، وساح فى الأرض فى طلب النور الربانى ، والهداية القدسية .

وظل على هذه الحال ست سنوات أو سبعا تحققت بعدها التنبؤات التى حفلت بها آلاف السنين الماضية ، ومن ثم بدأ سدارثا حياته باعتباره بوذا جوتاما المنقذ المنتظر .

وتفصيل ذلك أن سدارثا بعد أن هجر الحياة المادية وأقام على شاطىء نهر أنوما سبعة أيام قرر أن يذهب إلى راجاجريها Rajagriha فى إقليم ماجاذا Magadha حيث كان يقيم فى الغابات راهبان هما ألارا كلاما Alara Kalama وأدا كا Uddaka ، وكانا من رهبان البراهمة الذين عرف عنهم الولع بالتبتل ، والانقطاع إلى العبادة ، والتمسك بالشعائر الدينية ، وقد تمكن لديهما الأمل فى أن يصلا بالعبادة والتبتل والأدعية والصلوات إلى الحق والحقيقة الإلهية بطريق الفيض اللدنى .

وقد استمع سدارثا إلى أحاديثهما ، وأدرك غرضهما ، فصاحبهما وجعل نفسه مريداً تابعا لهما ، وواظب معهما على أداء الأدعية والصلاة ، وممارسة ما كانا يمارسانه من أنواع العبادات .

ولكن سرعان ما نادته طبيعته الروحانيـة من أعماق نفسه ، وأنبأته أن طريق الوصول إلى الحقيقة لا يمكن أن يكون طريق العبادات الظاهرية ، وأن الحقيقة لا يمكن الحصول عليها بطريق الفيض الخارجي ، بل لابد أن ينبع العرفان اللدني من الذات نفسها ، أو من الروح التي يحملها الإنسان بين جنبيه ، ومن ثم قرر أن يبحث عن طريق آخر .

٢ — ترك سدارثا الراهبين وشأنهما وما يعكفان عليه من تعبد ظاهرى ، وما يحرصان على اتباعه من تعليمات وقوانين قاسية ، وذهب إلى غابة على مقربة من أوروڤيلا Uruvila فى بلاد البنغال حيث قرر فى نفسه أن يتبع طريقا آخر للوصول إلى غرضه ، ذلك هو طريق إذلال الذات ، فأسلم نفسه لحياة أشد ما تكون قسوة ، حياة تقوم على الحرمان الكامل والعزلة التامة .

وذاع فى الناس أمره ، وعرفوا غرضه ،وأدركوا ما اعتزم من الزهد والتقشف الذى كاد يتجاوز الطاقة البشرية . وهنالك انضم اليه خمسة من الزهاد ، واتخذوه قدوة لهم فى التضحية والزهد ، والتفرغ والحرمان إلى أقصى حد .

يقول بعض المؤرخين فى هذا المعنى : إن أمر جوتاما قد ذاع ، وانتشر فى ذلك الوقت ، كما ينتشر صوت ناقوس معلق فى قبة السماء .

ومرت على هذه الحال ست سنوات حتى أشفى سدارثا على الهلاك من شدة الحرمان ، وقسوة العذاب . وحينئذ أدرك أن هذا الزهد الشديد الذى كاد يفضى به إلى الموت لم يقربه إلى الحقيقة المنشودة ، بل لم يمكنه من الانتصار على مطامع الحياة الدنيوية المادية .

٣ — لقد حاول أن يصل إلى الحق بطريق الزهد الذى بلغ أقصى حد ، ولكنه لم يفلح ؛ ومن ثم قرر أن يترك هذه المحاولة ويسلك طريقاً آخر ، على الرغم مما سمعه

من زملائه الخمسة ، الذين عدّوا تخليه عن حياة الزهد نوعا من الردة والحيدة عن طريق الصواب والحكمة ، فتركوه وذهبوا إلى مرج الغزال قرب بنارس Benares جنوبى نيبال .

لقد مضت سبع سنوات ولا يزال غرض سدارثا بعيد المنال ؛ إذ لم يصل بعد إلى الحقيقة التى يبحث عنها . وقد علم أن التعبد الظاهرى والزهد الشديد لم يجديا، ولم يقرباه قيد أنملة من مأربه الذى يبتغيه ، ولم يصلا به إلى غرضه الذى يرتضيه .
فما ذا هو فاعل الآن ؟ هل يكف نفسه عن محاولاته ، ويصرف النظر عما يصبو إليه ، ويقطع الأمل فى الحصول عليه ؟ لا ؛ فإن الجذوة الروحانية لا تزال مشتعلة فى صدره ، وإن باب الأمل لا يزال مفتوحا فى وجهه ، فما عليه إلا أن يحاول أن يلجه مرة أخرى .

٤ — ترك سدارثا أوروڤيلا ، وجول فى الأرض فى ليلة مقمرة من ليالى شهر مايو ، وما زال يجول حتى وصل إلى مكان بجوار غايا Gaya ، وهنالك جلس جلسة المتأمل المتدبر تحت شجرة عظيمة من فصيلة التين تسمى شجرة البو (Bo-Tree) ، وجعل ظهره إلى جذعها ، واستقبل وهو جاث على ركبتيه مشرق الشمس ، وأخذ على نفسه ذلك العهد المظيم فقال :

« لتجفّ عظامى : ولتجف بشرتى وعضلاتى — فرحبا إذا حدث ذلك ، وليتجمد دمى ، وليجف جميع ما بجسدى من لحم ، ليكن ذلك . ولكنى لن أبرح مكانى هذا ، ولن أغادر مجلسى حتى أحصل على الحكمة السامية ، وأصل إلى المعرفة الحقة » .

وبر الرجل المظيم بقسمه فجلس « متربعاً » ، واتخذ لجسده وضعا ثابتاً ، وعزم عزما مؤكدا على ألا يتحرك — وإن سقطت على رأسه مئات من الصواعق .

وظل سدارثا على هذه الحال طول الليل ؛ منغمسا فى تأملاته الروحانيــــة



بوذا
تحت شجرة العرفان

ورياضاته النفسية ، فأخذت الحجب التى تخفى عنه وجه الحقيقة تتمزق حجابا بعد حجاب ، ولم ينبثق نور الفجر إلا وقد تجلت له الحقيقة الربانية ، وتحولت نفسانيته ، وهبط على رأسه تاج المرتبة البوذية .

ومن الأساطير المروية عن جوتاما الخاصة بجلوسه تحت الشجرة على الصورة التى وصفناها أنه علم فى الهزيع الأول من الليل كل مايتعلق بحياته الماضية ، وأنه أدرك فى الهزيع الثانى كل ما يتعلق بحالته التى وصل إليها حتى ذلك الوقت ،وأنه أدرك فى الهزيع الثالث مبدأ سلسلة الأسباب والمسببات ، وأنه لم ينبثق الفجر إلا وقد أحاط علما بكل شىء ، وحينئذ وصل إلى حالة النيرڤانا ؛ أى العدم العام وفناء النفس . أو اتصالها بعالم الحقيقة — لا بالعبادة الظاهرية ، ولا بتعذيب النفس ، بل باتباع الفضائل العملية ، وإدراك أن جميع الكائنات فى تحول دائم .

٥ — لقد أصاب جوتاما الهدف بتلك الوسيلة التى يتوسل بها المهتدون الذين يخترقون حجب الجهالة ، وتشرق عليهم أنوار العرفان . ولكن لم يرق ذلك فى نظر مارا أمير الظلام ، وزعيم الشياطين ؛ فقد زأر زئيراً ملأ أرجاء الفضاء ، وجمع جيوشه وأتباعه من كل فج ، فأقبلوا عليه ، واصطفوا حوله فى اثنى عشر صفا ، وانتشروا حتى ملئوا جميع جهات الأرض من حول جوتاما ، ثم انقضوا عليه كأنهم جراد منتشر ، أو كأنهم الطوفان يغشى وجه الأرض ، وحملوا حملة رجل واحد على ذلك الكائن النورانى ، يريدون الإحاطة به ؛ وإحباط مساعيه .

لقد أجمع الشياطين أمرهم على أن يغروا عدوهم الجديد بجميع وسائل الإغراء ؛ فعظموا له أمر المطامع الدنيوية ، ورفعوا شأن الشهوات الحيوانية ، وحببوا إليه الحياة وحلاوتها ، ورغبوه فى نعيمها وطلاوتها ، وحاولوا أن يوقظوا فى نفسه عاطفة محبة الأهل والوطن ، وأن يحذروه عاقبة ما هو

بصدده من حياة الحرمان والتقشف التى ليس وراءها إلا الموت العاجل .

ولقد بذلوا كل ما فى وسعهم لـكى يؤثروا فى ذلك الـكائن الوحيد الجالس تحت شجرة العرفان فى تلك الليلة الخالدة الذكر ، وكرروا محاولاتهم راجين أن يثنوا من عزيمته . ويضعفوا من قوى إرادته ، ولـكن هذه المحاولات جميعها قد باءت بالفشل ؛ ولم تستطع تلك المغريات على قوتها وتـكرارها أن تحدث أى أثر فى تلك الروح الصافية ، التى تذرعت بإرادة صارمة ، وعزيمة صادقة ، وتحصنت بحصن منيع ، وأوت إلى ركن شديد ، ذلك هو حصن الحقيقة اللدنية الحصين ، الذى لايقوى على اقتحامه جيوش الشياطين .

وفى وقت السحر ، فى تلك الساعة الرهيبة التى تسبق انبثاق الفجر شعر مارا وأتباعه وجيوشه الجرارة بخيبة الأمل ، ومرارة الفشل ، فارتدوا على أعقابهم خاسرين ، وانسحبوا من المعركة يائسين مـدحورين . وكذلك ينهزم ضلال المضللين ، أمام نور الحق وقوة اليقين .

وما إن انبثق نور الفجر إلا وقد صار بوذا المنتظر بوذا الحقيقى ، وظهر فى الوجود المنقذ الجديد الذى أرسلته العناية الإلهية لإنقاذ البشرية مما فيها من عناء ، وتحريرها مما تعانيه من شقاء .

٦ — والآن يجدر بناء أن نتحدث عن شجرة العرفان[١] التى تحتها أشرقت شمس الهداية على بوذا الأكبر . لقد كانت شجرة من فصيلة التين يطلق عليها اسم شجرة البو Bo Tree وقد عنى البوذيون بأمرها عناية كبيرة ، وجعلوها منذ البداية موضع تقدير وصل إلى درجة التقديس . ومن المحقق أن هذه الشجرة

(١) راجع The Outline of History by H.G. Wells Vol. I. p. 261

قد فنيت منذ زمن بعيد ، وأن شجرة عظيمة أخرى من فصيلتها قد نبتت على مقربة منها ، وربما تكون قد تفرعت منها .

وفى سيلان الآن شجرة عظيمة من هذه الفصيلة يمكن أن تعد أقدم شجرة تاريخية فى العالم . ومن المؤكد أن شجرة سيلان هذه فسيلة اقتطعت من شجرة البو القديمة حوالى سنة ٢٥٤ ق . م ، وغرست فى المكان الذى هى به الآن . وقد عنى بها البوذيون منذ ذلك الحين أشد عناية ، وتعهدوها بالرى والإصلاح ، وأقاموا على جوانب فروعها أعمدة تحميها ، ومهدوا الأرض من حولها حتى أمكنها أن تخرج جذورا جديدة دون انقطاع .

وقد يدلنا على قصر حياة الإنسان أن نعرف أن شجرة واحدة مثل هذه مرت عليها القرون والأجيال ولا تزال حية تنمو .

يقول العلامة ويلز : إنه لما يؤسف له حقا أن أتباع جوتاما قد عنوا بشجرته أكثر مما عنوا بعبادته التى مسخوها وأساءوا فهمها منذ بداية أمرها .

٧ — من هذا البيان نعرف على وجه اليقين أن الشجرة التى أوى إليها بوذا الأكبر، وتلقى تحتها المعرفة اللدنية كانت من فصيلة التين . فهل تلقى معرفتنا هذه ضوءا جديدا على معنى الآيات الكريمة : والتين ، والزيتون ، وطورسينين ، وهذا البلد الأمين ؟

لقد جرت العادة بأن تفسر هذه الآيات على أن « التين والزيتون » معا إشارة إلى نبوة عيسى عليه السلام ، وأن «طورسينين» رمز إلى نبوة موسى عليه السلام ، وأن « هذا البلد الأمين » إشارة إلى رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكنى أشعر فى قرارة نفسى أن النظم القرآنى الكريم يوحى بأن كل كلمة رمز لشخص ؛ «فالتين» رمز لبوذا الأكبر، و«الزيتون» رمز لعيسى عليه السلام، و «طور سينين» رمز لموسى عليه السلام ، و«هذا البلد الأمين» رمز لمحمد رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وقد يؤيد هذا الرأى أن كلمة الزيتون ذكرت بعد كلمة التين إشارة إلى أن بوذا ظهر قبل عيسى ، وذكر الكلمتين معا قد يكون إشارة إلى مابين البوذية والمسيحية من تشابه . فكل منهما تدعو إلى التقشف ، والإيثار ، وعدم المقاومة . وكذلك يقال فى طور سينين ؛ وهذا البلد الأمين، فتقديم طور سينين على هذا البلد الأمين يشير إلى أن موسى عليه السلام ظهر قبل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وذكر العبارتين معا قد يكون إشارة إلى ما بين اليهودية والإسلام من تشابه فكل منهما ديانة عقائد ، وشرائع ، وآداب ، وأحكام .

والله سبحانه وتعالى يقول : « إنا أنزلنا التوارة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين[1] » .

---

(١) المائدة : ٤٨ — ٥٠ .

فقد أفاضت هذه الآيات الكريمة فى الحديث عن التوراة وما فيها من أحكام ، وعن المطالبة بالرجوع إليها فى الحكم بين الناس ، وأوجزت الآيات فى الكلام على الإنجيل ، وقالت إنه أنزل مصدقا للتوراة .

ويرى بعض المحققين أن التوراة كانت مرجع المسيحيين فى معرفة الأحكام ؛ لأن الإنجيل لم يشتمل على أحكام ، ولا على بيان حلال وحرام . وفى ذلك يقول العلامة الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل : « جميع بنى إسرائيل كانوا متعبدين بشريعة موسى عليه السلام ، مكلفين التزام أحكام التوراة . والإنجيل النازل على المسيح عليه السلام لا يختضن أحكاما ولا يستبطن حلالا ولا حراما ، ولكنه رموز وأمثال ومواعظ ، وما سواها من الشرائع والأحكام محال على التوراة » .

فالتوراة أو — بعبارة أدق — العهد القديم يعد لدى المسيحيين مرجعا دينيا يوثق به ، وهم لذلك يطلقون عليه وعلى العهد الجديد اسم الكتاب المقدس . وهذا اعتراف منهم بقدسية التوراة ، بل إن فريقا منهم يعتقدون أن كثيرا من آيات العهد القديم تعد حجة فى التبشير بظهور السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام .

فى ضوء هذا كله نستطيع أن نقرر .

ا — أن كلا من اليهودية والإسلام يعنى بالعقائد والشرائع والأحكام التى تنظم حياة الناس الاجتماعية . أما كل من البوذية والمسيحية فمجموعة من النصائح والمواعظ والأمثال التى تدعو إلى التقشف والزهد فى أعراض الدنيا الزائلة :

ب — أن الإسلام يشبه اليهودية ، وأن المسيحية تشبه البوذية .

حـ — أن هذا هو السر فى أن القرآن الكريم ذكر «التين» «والزيتون» معا ، وذكر «طور سينين» و «هذا البلد الأمين» معا أيضا .

ى — أن تقديم التين على الزيتون إشارة إلى أن ظهور بوذا كان قبل ظهور عيسى ، وهذا هو الواقع فقد ظهر بوذا قبل عيسى بنحو خمسة قرون ونصف . وأن تقديم «طور سينين» على «هذا البلد الأمين» إشارة إلى أن موسى عليه السلام ظهر قبل الرسول عليه الصلاة والسلام بنحو خمسة قرون ونصف أيضا كما هو معروف — والله أعلم .

الفصل السابع

جوتاما يذيع مبادئه

١ — بقى بوذا جوتاما فى غابا ثمانية وعشرين يوما يتدبر ويفكر فى تلك الحقائق اللدنية التى ظفر بها تحت شجرة العرفان ، وينظر فى المسلك الذى يسلكه فى المستقبل . وبينما هو كذلك إذا عارا — زعيم الشياطين — يتراءى له مرة أخرى ، ويقول له : « لقد ظفرت بالحقيقة السامية ، وصرت الآن أهلا لأن تترك هذه الحياة الأرضية السفلى ، وتعرج إلى الملأ الأعلى حيث تقيم الكائنات النورانية ، وإذا حييت فلن يقبل الناس دعوتك إلى الحق الذى وصلت إليه ، فعليك إذن أن تفنى ، وتصعد إلى الوجود الأسمى ، وتحظى بالمنزلة الرفيعة التى أعدت لك فى الملأ الأعلى » . ولكن بوذا الكائن النورانى لم يستمع إلى غواية ذلك الكائن الشيطانى ، بل قال له : انصرف عنى أيها الشيطان فبعدا لك .

وما إن فرغ بوذا من غواية الشيطان ، وما إن انتصر عليه انتصارا نهائيا حتى نصب نفسه لتبليغ الناس الحقائق الربانية لينقذهم من سجن اللذات ، ويحرر أنفسهم من أغلال الشهوات ، فمن كانت لديه نفس صافية وأذن واعية استمع إلى ندائه وآمن بدعوته .

٢ — ويتذكر بوذا أصدقاءه الخمسة الذين تركهم فى أوروفيلا ، فيزمع الرحيل إليهم ، والجد فى البحث عنهم ؛ ليبلغهم الحقيقة الربانية التى آثرته بها العناية الآلهية .

وما زال يبحث عنهم حتى عثر عليهم فى مرج الغزال ، وقد اشتد أسفه حين علم أنهم لايزالون يشمرون بشىء من الحنق عليـــــه ؛ لأنه هجر مذهبهم : مذهب الزهد والتقشف . ولـكنهم لما رأوه يقترب منهم لمحوا فيه أمارات البوذية ، وشاهدوا نورها يشرق من جميع أجزاء بدنه، فأدركوا أنه وصل إلى الحقيقة الربانية، واتصل بالوجود السرمدى ، والـكائن الأبدى . فلم يسعهم إلا أن يرحبوا به أشد الترحيب ، بعد أن كانوا قد هموا بالاستهزاء به والسخرية منه .

وأقام بوذا مع هؤلاء الزملاء خمسة أيام قضاها فى إرشادهم وإقناعهم بوجهة نظره ، وقد نجح فى ذلك بقوة شخصيته ، وبما أوتى من فطنة وذكاء ، ومقدرة على حسن البيان فى إقامة الحجة . وقد ألقى على أصحابه موعظته الأولى التى يطلق عليها موعظة عجلة القانون. وتتضمن هذه الموعظة عرضا إجماليا للحقائق الربانية التى تلقاها بوذا تحت شجرة العرفان . وإليك ترجمة هذه الموعظة : (١)

« استمعوا أيها السالكين : إن لسلوك الإنسان طرفين ، الأول : سلوك من يطلقون لأنفسهم أعنتها فتنغمس فى الشهوات ، وتفرغ لأنواع المسرات ، وهذا هو سلوك الماجن المستهتر . والثانى : سلوك من يعذبون أنفسهم ليذلوها ويكبحوا جماحها . وكل من هذين الطرفين ممقوت لاقيمة له ، ولا فائدة ترجى منه ، وليس لهما صلة مطلقا بالزهد الحقيقى ، والانصراف عن الحياة المادية ، ولا بضبط النفس ، وحملها حملا حقيقيا على تحمل آلام الحياة وعدم الاعتداد بها . فليس من شأن أى من هذين السالكين أن يوصل إلى التخلص من متاعب الحياة . »

« فعلى من يعترفون بأن تعذيب الجسد عديم الجدوى ، وعلى من انصرفت

---

(١) راجع : Oriental Philosophy, by F. Grant P. 41—42

أنفسهم عن الاهتمام بما فى الحياة من لذة وألم — على هؤلاء وأولئك أن يتعلموا أن ينهجوا منهجا وسطا — إذا أرادوا إصلاح العالم البشرى .»

«إن هذا طريق واضح لا تخطئه الأعين ، وإنه ليَهَب لمن يسلكه الذكاء والفطنة وبعد النظر ، ويفضى به إلى قوة البصيرة ، وهدوء النفس ، والحكمة العليا ، والسعادة الأبدية بالفناء فى عالم الحقيقة .»

« وإن تاثاجاتا (= بوذا جوتاما) الذى كشف له الحجاب عن أسرار الحقيقة يذيع فى الناس قانون الخير ، الذى يتضمن الحقائق الأربعة السامية ، والطريقة الثمانية العناصر ، التى هى الوسيلة الوحيدة المفضية إلى المعرفة الكاملة».

« والآن وقد شرعت فى الكلام عن الحقائق الأربعة السامية فإنى أود أن أبين أولا المعنى الحقيقى لضبط النفس . إن هذه الحقيقة السامية هى أفضل القوانين المقدسة ، وتتلخص فى أن تستمسكوا ما حييتم بالطريقة الثمانية العناصر . »

« إن هذه الحقيقة السامية هى أفضل وسيلة للوصول إلى الحرية الحقيقية ؛ فإن الأبرار الأطهار الذين يدركون تمام الإدراك معنى المعرفة النبيلة يصلون إلى الملأ الأعلى ، باتصافهم بصفات ممتازة جاءت لهم بطريق ضبطهم لأنفسهم فى الحديث والتفكير وثورة الرغبات الجسمية . أما هؤلاء الذين يحرصون على الحياة فإنهم يشقَون بشرورها التى لا تنفك تنقض عليهم انقضاض الجيوش الجرارة ، حتى إذا ما أدركتهم الشيخوخة ، وفتكت بهم الأمراض قضوا نحبهم ، ثم اضطروا إلى الحياة مرة أخرى » .

« إن كثيراً من الحكماء يفكرون فى معنى الرجعة أو العودة إلى الحياة ، ولا أحد يعرف السبب فى حدوث الفناء . »

« إن الجسم يتركب من خمسة عناصر ، وإن وجوده مستمد من وجود هذه

العناصر الخمسة ، وإنه خال من الروح ، وإنما ينشأ وجوده بتأثير أسباب الوجود ، التى هى بمثابة سلسلة ذات حلقات تتصل كل منها بما تليها . وسلسلة الأسباب هذه هى علة الوجود والفناء معا . »

« فعلى من يعلم ذلك ، ويرغب فى أن يسعى فى خير العالم وتحصيل السعادة للناس أن يؤمن إيمانا عميقا بمبدأ سلسلة الأسباب ، وأن يقصر عقله وتفكيره على تحصيل المعرفة والحكمة ، وعليه أن يأخذ على نفسه عهداً أن يلتزم فى هذه الحياة مبدأ حرمان النفس ، وأن يتصف بصفات الكمال الأربع ، وأن يسلك فى جميع أطوار حياته مسلك من يفعل الخير دائما ، ويحسن إلى كل كائن من الكائنات . إن من يفعل ذلك، ويسيطر على جميع رغباته الشريرة سيصل إلى درجة الأرهاط أى الحكمة المطلقة ، ويندمج فى عالم العليا أى الملأ الأعلى . »

وتؤكد الروايات البوذية أنه فى اليوم الذى أذاع فيه جوتاما خلاصة الحقائق الروحانية التى هبطت عليه من المحل الأرفع انتشرت فى أرجاء الأرض جماعات من الملائكة ، وأذاعت فى العالم أن الإنسان قد أصبح المسيطر على حياته، المتصرف فى شئونه . وقد وقعت كلمات جوتاما موقعا حسنا لدى المتبتلين الخمسة ، وكانت بمثابة فيض من الحقائق اللدنية غمرهم فلم يجدوا بدا من قبولها والدخول فى دين جوتاما . ووصلت تلك التعاليم إلى آذان كثير غير هؤلاء الخمسة فهرعوا إلى جوتاما وتقبلوا تعاليمه بقبول حسن .

٣ — وقد بقى جوتاما فى مرج الغزال قرب بنارس حتى بلغ عدد تلاميذه الملازمين له نحو ثلاثين ، ووصل عدد من تبعه عدا هؤلاء إلى ما هو أكثر من ذلك . وكان فى مقدمة الفريق الأول شاب ثرى اسمه ياسا، جاء بوذا فى أول الأمر فى غلس الليل خوفا من أقاربه، ثم حلق رأسه ، ولبس الرداء الأصفر ، وأعلن قبوله لمبادىء بوذا،

ثم نجح فى تبويذ عدد من أهله وأصدقائه ، وكانت أمه وزوجه فى مقدمة من تبوذوا من النساء ، وكان أبوه فى مقدمة أتباعه من أهل بناريس .

وبعد ثلاثة أشهر بلغ عدد أتباع بوذا نحو ستين ، فجمعهم وطلب منهم أن يسيروا فى الأرض ليدعوا الناس إلى الدين الجديد، وينشروا بينهم كلمة الحق، متزيين بزى الدراويش، سالكين مسلكهم فى التقشف والمسكنة .

٤ — أما بوذا فقد ترك بناريس وذهب إلى مكان منعزل قرب أوروڤيلا، حيث كان يقيم ثلاثة إخوة من الفلاسفة المتبتلين عبدة أجنى النار الخالدة ، وكانت لهم سمعة طيبة لقدرتهم على الوعظ والإرشاد . وكان يلتف حولهم جماعة من مريديهم المعجبين بتعاليمهم . وأقام جوتاما بينهم ، ودعاهم إلى مبادئه فلم يلبثوا أن اعتنقوها ، وكان ماها كسابا Maha - Kassapa أكبر الإخوة أكثرهم تحمسا لهذه المبادىء وأشدهم إخلاصا لها ولصاحبها .

ويقال أن بوذا ألقى فى هذا المكان موعظة تسمى الوعظة من فوق الجبل؛ تشبيها لها بالموعظة التى ألقاها سيدنا موسى على بنى إسرائيل متضمنة الوصايا العشر . وكان موضوع هذه الموعظة التعليق على حادثة حدثت فى ذلك الوقت ، تلك هى اشتعال النار فى غابة على جبل مقابل لسفح الجبل الذى كان يقيم فيه جوتاما ؛ فحين شاهد بوذا تلك النار حذر سامعيه الاشتعال بالنيران التى تشعلها الشهوة الجنسية ، والغضب ، والجهل ، والحياة والموت ، وما بينهما من أمراض ومتاعب نفسية . ثم تحدث عن الحواس واحدة بعد الأخرى ، مشبها الإحساس فى كل حالة بلهب النار الذى يبدو كأنه شىء وليس بشىء ، وأنه يروق منظره ويؤلم مخبره ، وأنه سرعان ما يذهب تاركا من ورائه الخراب والدمار .

وقد انتهز جوتاما هذه الفرصة فتحدث إلى ماها كسّابا ، الذى كان شديد

التعلق بعبادة النار ، فبين له أن المعنى الحقيقى الذى تفيده كلمة آجنى ليس هو النار المهلكة ، بل إنه هو السبيل إلى تحرير النفس ، وإنقاذ الروح •

٥ — بعد ذلك ذهب بوذا ومعه أتباعه وتلاميذه إلى راجاكاها Rajagaha مقر الملك بيمبيسارا Bimbisara ، فخرج إليه الملك ، ورحب به وبأتباعه . ولما رأى أهل المدينة كسّابا الذى كان لديهم أشهر من نار على علم وقعوا فى حيرة من أمرهم ، إذ لم يعرفوا مَن من هذين الرجلين العظيمين التابع ؟ ومن المتبوع ؟ ولكن كسابا كشف لهــــم عن حقيقة الأمر ، فأنبأهم أنه رجع عن اعتقاده فى فائدة القرابين صغيرها وكبيرها ، وأدرك أن النيرڤانا — أى قهر النفس — هى حالة هدوء نفسانى لا يمكن الوصول إليها إلا بالتأمل والتفكير وتغيير اتجاهات القلب ، ثم أعلن أنه قد دخل فى دين جوتاما ، وصار من أتباعه •

ثم تحدث جوتاما إلى الملك أحاديث أعجب بها ، وألقى عليه مواعظ ذاب لها قلبه ، فقد أوضح له أنواع البؤس والشقاء التى يعانيها العالم البشرى من جراء اندفاعاته الشهوانية ، ثم شرح له الطريقة التى يمكن أن يتبعها الإنسان للتخلص من بؤسه وشقائه •

ولما انتهى جوتاما من أحاديثه ومواعظه لم يلبث الملك أن قبل الدين الجديد ، وصار من أشد تلاميذ جوتاما إخلاصا له ، وحذت حاشية الملك حذوه ، فاعتنقوا البوذية • وفى اليوم نفسه دعا الملك جوتاما وأتباعه ليتناولوا فى بيته غذاءهم البسيط الذى تعودوا أن يتناولوه • ولما كان الملك شديد الرغبة فى أن يقيم جوتاما بجواره فقد أهدى إليه حديقة قريبة من قصره تسمى حديقة ڤيلوڤانا أو حديقة البامبو ، وهى الحديقة التى كانت لها شهرة عظيمة ؛ لأن بوذا قد اختارها مقاماله فى موسم الشتاء عدة سنوات ، وألقى فيها كثيرا من تعاليمه الأساسية الكاملة • وهنالك

التف حول جوتاما عدد عظيم من الأنصار ، من بينهم ساريپوتا Sariputta و مُجّالانا Moggalana اللذان صارا فيما بعد عضوين بارزين فى السَّنغا Sangha — أى جماعة المتصوفة دعاة البوذية .

ومما روى فى هذا الصدد أن تاجرا من تجار سوناپارَنتا وفد على جوتاما وآمن به وانضم إلى السنغا ، وحين أراد اللحاق بأهله استأذن جوتاما فى أن يذيع فيهم التعاليم الجديدة ، فقال له جوتاما : إن أهل ذلك البلد قساة أشرار ، فماذا تفعل إذا سبوك ؟ فقال الرجل : أسكت ولا أرد عليهم . فقال جوتاما : وإذا ضربوك فماذا تفعل ؟ فأجاب : لا أمد يدى إليهم بسوء ردا على أذاهم . فقال جوتاما : وإذا هموا بقتلك ؟ فقال الرجل : « ليس الموت شرا فى ذاته ، بل أن كثيرا من الناس يتمنونه ويرغبون فيه ليتحرروا من مظاهر الحياة الخداعة الغرارة ، ولن أخطو خطوة لأقدم أجلى أو لأؤخره » .

وسمع جوتاما هذه الإجابات فبدت عليه علامات الاستحسان .

يقول أحد المؤرخين[1] تعليقا على هذه الحادثة ما خلاصته : « لقد قال فريق من الناس إن السيد المسيح كان أول من أذاع فى الناس مبدأ الاحتمال وعدم المقاومة . ولكن قد يبدو أن هذا الرأى غير صحيح ، إذا قلنا بصحة هذه الحادثة التى روت عدة مصادر أنها حدثت بعد أن قضى جوتاما نحو ثمانية عشر شهرا فى تبليغ رسالته » .

٦ — ويروى أيضا أن سوذودانا أبا جوتاما كان يتتبع أخباره . ولما علم أنه ترك الزهد والتقشف وأخذ يسيح فى الأرض يعلم الناس مبادئه الجديدة أرسل إليه يقول إنه

---

(١) راجع A.Popular History or Philosophy, by M. M. kaunitz, p. 39.

يريد أن يراه قبل وفاته . فاستجاب بوذا إلى رغبة أبيه وذهب نحو كاپيلاڤاستو ، وأقام — كما كانت عادته — فى حديقة قريبة من المدينة . وعلم أبوه بمقدمه فذهب لزيارته هو وأعمامه وغيرهم . ولـكن لما رأوه يلبس ملابس الدراويش غضبوا عليه ونفروا منه ، وتركوه ولم يكترثوا به ، ولم يدعوه ولا أحدا من أتباعه لتناول الطعام معهم — كما كانت عادة الـكبراء مع أمثال هؤلاء الدراويش الوعاظ .

فما كان من جوتاما إلا أن حمل وعاءه الذى تعود أن يجمع فيه ما يتصـدق به الناس على أمثاله من الفقراء أبناء السبيل ، ودخل البلد وأخذ يستجدى ، وعلم أبوه بذلك فاستشاط غضبا ، وأسرع فى الذهاب إلى ابنه ، وأخذ يعاتبه ويؤنبه على فعلته .

وقال له فيما قال : « يابوذا العظيم ! لماذا تلحق بنا هذا العار ؟ أمن الضرورى أن تتردد على أبواب الناس تسألهم أن يطعموك ؟ أتظن أننى عاجز عن أن أمدك بما يحتاج إليه هذا العدد العظيم من أتباعك الفقراء أبناء السبيل » ؟

فأجاب جوتاما : « أيها الوالد النبيل » : إن هذه هى تقاليد شعبنا » فقال الأب : ما هذا ؟ ألست تعلم أنك تنحدر من أصل كريم ، وأنه لم يأت أحد من أبناء أسرتنا مثل ما أتيت من الأفعال المستهجنة » ؟ فقال جوتاما : « أبى النبيل ! قد تدعى أنك أنت وأسرتك منحدرون من أسرة الشمس ، ولـكنى أقول إننى منحدر من أسرة البوذوات قدماء الأنبياء ، وقد كانوا جميعا ينهجون مثل هذا النهج ، فلست بدعا منهم ، وإن العادات التى يفرضها القانون الإلهى (ذرْما) عادات طيبة تنفع فى الدنيا والآخرة ، وإنى أرى من الواجب على من يعثر على كنز أن يهب لأبيه أولا وقبل كل شخص آخر أثمن ما وجد فى الـكنز من الجواهر وأعلاها قيمة ، فلا تتراخ أيها الأب النبيل ، وأسرع إلى مشاركتى هذا الـكنز الذى وجدته » .

وسمع الأب هذا الكلام فاعترته غمرة من الخجل ، ثم أخذ الوعاء من يد ابنه وقاده إلى داره .

٧ — ومن القصص التي تروى عن جوتاما كذلك أن فلاحا ثريا من البراهمة كان يحمل حصاده إلى داره ، فتصدى له جوتاما في الطريق ، وأراد أن يعظه ، فرفع وعاء الصدقة ، وقدمه نحو البراهمي وطلب منه الإحسان .

فما كان من البراهمي إلا أن رد بوذا وقال له : « لماذا تأتي هنا وتسألني الإحسان ؟ إني حرثت الأرض وزرعتها ، وحصدت غلتها ، فهي ثمرة كدي ، ونتيجة عمل يدي ، لقد كان ينبغي عليك أن تفعل مثل ما فعلت » . فقال جوتاما المتسول : « أيها البراهمي ! إني أنا أيضا أحرث وأزرع ، وبعد ذلك آكل » . فقال الفلاح : « إنك تدعى أنك فلاح ، ولم يرك أحد تفلح الأرض . فماذا تريد ؟ » .

فأجاب المتسول : « إن الإيمان هو بذور زراعتي ، وإن مقاومتي لنفسي وشهواتها هو الماء الذي يروي البذور ، وإن الحشائش الطفيلية التي أجتثها كيلا تتلف الزرع هي الروابط التي بيني وبين الحياة ، ومحراثي هو الحكمة ، وقائد محراثي هو التواضع ، والمثابرة هي التي تجر المحراث ، وإني أقودها (أي المثابرة) بزمام من عقلي ، وإن الحقل الذي أعمل فيه هو القانون (ذرما) ، وإن الزرع الذي أحصده هو النيرفانا الخالدة ، وإن من يحصد هذا الزرع يجتث جذور الحزن من أصولها » .

٨ — وإليك قصة أخرى طريفة تروى عن جوتاما :

حكى أن فتاة صغيرة اسمها كيسا جوتامي تزوجت في عهد الصغر كما هي العادة في الهند ، وزفت إلى زوجها ، ثم رزقت — ولما تزل صغيرة — طفلا ذكرا جميلا ، ونما الطفل حتى استطاع أن يمشي ، ويجري معتمدا على نفسه ، وحينئذ توفي ، فحزنت أمه عليه أشد الحزن ، وحملته معها في حضنها جثة هامدة ، وهي في حالة

جنون . وذهبت إلى الناس فى دورهم تسألهم عن دواء يعيد الطفل الجميل إلى الحياة. وبالطبع لم يرشدها أحد إلى ما تريد .

وأخيرا لقيها فى الطريق بوذى حديث عهد بالبوذية ، فسألها عما تريد ، فقصت عليه قصتها ، فقال : إنى لا أعرف الدواء الذى تبحثين عنه ، ولكنى أدلك على من يعرفه . فقالت المرأة فى تلهف : من هذا ! .

فأجاب : جوتاما المعلم الأكبر .

فأسرعت المرأة إلى جوتاما ، وبعد أن سلمت عليه قصت عليه القصة ، فقال : «إنى أعرف الدواء الذى تطلبينه » . فقالت : وما هذا ؟ فقال . هو حب الخردل . ففرحت المرأة ووعدت بإحضار الدواء ؛ إذ علمت أن حبوب الخردل كثيرة ، ومن الممكن الحصول عليها فى سهولة ويسر .

ولكن جوتاما أسرع فقال لها : « عليك أن تحضرى بعض هذه الحبوب بشرط أن تحصلى عليها من بيت لم يمت فيه ابن ولا زوج ولا أخ ولا عبد » .

وسمعت المرأة ذلك ولم تلبث أن سلمت على جوتاما وانصرفت وذهبت فى طلب الدواء . وطرقت أبواب الناس تطلب منهم حب الخردل كما وصف جوتاما ، ولكنها لم تصل إلى غرضها ؛ فقد قال لها أحد من سألتهم : ماذا تقولين أيتها الشابة ؟ إن لدينا كثيرا من حب الخردل ، ولكن الأموات منا أكثر من الأحياء . وقال آخر إنى فقدت ابنى ، وقال ثالث : إنى فقدت والدى . و قالت رابعة : إنى فقدت زوجى .

ولما لم تظفر الشابة بما تريد ، وعلمت أنه ليس فى المدينة بيت إلا قد مات فيه قريب حبيب أيقنت أنها ليست بدعا من الناس . وحينئذ عقدت العزم على أن تلقى جثة ابنها فى العراء . وعادت إلى جوتاما ، وسلمت عليه ، فرد عليها السلام

ورحب بها، ثم سألها : ما بالك ؟ هل أتيت بالدواء ؟ فقالت : أيها السيد الأجل : إنى لم أجد الدواء كما وصفت ؛ فقد أنبأنى الناس أن الموتى كثير ، وأن الأحياء قليل .

وسمع جوتا ما قولها فعلم أنه نجح فى علاج مرضها ، وتهدئة نفسها ، فأخذ يحدثها عن طريقته ، ويفهمها أن جميع الأشياء إلى تغير وعطب وفناء . وما زال بها يعظها حتى أزال ما كان لديها من شكوك وأوهام . وحينئذ اطمأنت نفسها ، ورضيت بما أصابها ، واعتنقت مذهب بوذا ، وصارت من أتباع طريقته .

الفصل الثامن

بوذا فى أخريات حياته

١ — لقد ظل بوذا جوتاما ينهض بأعباء رسالته خمسا وأربعين سنة فى حوض نهر الكنج ، ولم يبعد عن بناريس أكثر من مائتين وخمسين ميلا . وكان دائما يقضى شهور الشتاء فى مكان واحد لايتجاوزه ، متخذا أحد الفيهارات مأوى له . وقد كانت الفيهارات فى أول أمرها أكواخا متواضعة يقيم فيها جوتاما هو وأتباعه من الدراويش ، ولكن أيدى التحسين والتجميل قد امتدت إليها ، ومازالت تحسنها وتجملها ، حتى صارت بديعة المنظر ، وظل أمرها كذلك إلى أن ضعف شأن البوذية فى الهند .

وفى السنة العشرين من رسالته دخل فى دينه ابن عمه آنادا ، وانضم إلى زمرة الدراويش أتباعه ، وعكف على خدمته ؛ يقضى له حاجاته الشخصية فى حب وإخلاص .

ثم انضم إلى جماعته ابن عم له آخر اسمه ديفادتّا ، وكان ابن راجا إقليم كولى . ولكن الحقد على ابن عمه جوتاما أخذ يتمكن منه ، وبلغ من حقده عليه أن أخذ يكيد له ، ويحرض على مطاردته آجاتاستّو ، الذى جلس على عرش راجاجاها بعد أن قتل أباه بمبيسارا السابق ذكره .

٢ — ويروى الرواة كثيرا من الأساطير عن تغلب جوتاما على ابن عمه المرتد ، وعلى آجاتاستو حاميه وقاتل أبيه . وخلاصة ما يقبل من هذه الأساطير أن

هذا الملك الآثم قد طارد بوذا والبوذية ، ولكن أمره انتهى بالتوبة والإيمان بالمذهب الجديد .

ولم تكن خيانة ديفادتا وحدها هى المحنة الوحيدة التى عاناها جوتاما . بل إن البراهمة فى عصره كانوا من أشد الفرق الدينية معارضة له ؛ فقد استنكروا بوجه خاص رأيه فى المساواة الروحانية بين جميع طبقات الشعب ، ولم يقلّ عن هؤلاء البراهمة فى مقاومة جوتاما فريق الزهاد ، الذين غلوا فى اعتناق مذهب التقشف والحرمان ؛ فقد نقموا عليه أن وصف طريقتهم بأنها عابثة عديمة الجدوى ، وذلك حيث يقول يخاطبهم :

« إن مسالككم كلها وضيعة تدعو إلى السخرية ؛ ففريق منكم يسيرون فى الطرقات عرايا يسترون عوراتهم بأيديهم ، وفريق آخر يأبون أن يتناولوا طعامهم من الأطباق وشرابهم من الأباريق ، ويأبى فريق ثالث أن يجلسوا بين اثنين يتكلمان ، أو بين سكينين أو طبقين ، أو حول مائدة عامة ، أو يقبلوا الصدقات من منزل فيه امرأة حامل ، أو يروا الكلاب أو الكثير من الذباب » .

« وإن بعضكم لا يأكل إلا النبات مع الجعة أو بعر البقر والغزال ، أو جذوعَ الشجر أو فروعها أو ورقها ، أو حبوب الغابة أو ثمارها . ومنكم من يلبس رداءه ملق على كتفه ، ومن يستر نفسه بالثمام أو لحاء الشجر ، أو سيقان النبات أو جلد الغزال ؛ ومن يلبس لباس الحزن ويرفع يديه دائماً ، ولا يجلس على كرسى أو حصير بل يربض على الأرض ربضة الحيوان ، أو يضطجع مفترشا النباتات الشائكة أو بعر البقر » .

« ولست أذهب أبعد من هذا ، بل إنى أمسك عن ذكر الوسائل الأخرى التى بها تعذبون أنفسكم وتستنزفون قواكم » .

« إن الزهد لا ينفع إلا إذا لم يتخذ قناعا تختفى تحته الدوافع الشريرة » .

٣ — ويروى الرواة أن جوتاما قام فى أخريات حياته بعدة رحلات ، منها رحلته إلى كوسينارا Kusinara ، وهى مدينة على نحو عشرين ومائة ميل إلى الشمال الشرقى من بناريس ، وعلى نحو ثمانين ميلا شرقى كابيلافاستو . وكانت هذه الرحلة حينما بلغ جوتاما الثمانين من عمره بعد أن استراح قليلا فى حديقة على مقربة من باواPawal كان صائغ يسمى چوندا Ghunda قد أهداها إلى جماعة من الدراويش البوذيين .

وقبيل القيام بتلك الرحلة أعد چوندا هذا طعام الغداء للدراويش . وبدأ الجميع رحلتهم بعد أن تناولوا الطعام ، ولكن لم يلبث جوتاما أن شعر بالتعب فاضطر للراحة ، ثم استدعى ابن عمه آنادا وقال له : إنى أشعر بظمأ شديد ، فقدم آنادا له الماء فشرب .

وفى منتصف الطريق بين باوا وكوسينارا اضطر جوتاما للراحة مرة أخرى ، فنزل على شاطىء نهر كوكشتا Kukshta ، وقد استحم فيه بوذا الأكبر لآخر مرة فى حياته .

وهنالك شعر جوتاما أن موعد وفاته قد اقترب ، ولما خشى أن چوندا يؤنب نفسه ، أو يؤنبه أحد لأن المعلم الأكبر توفى بعد تناول طعامه الذى أعده له فقد استدعى المعلم ابن عمه آنادا وقال له : « بعد أن أذهب هدىء نفس چوندا ، وأخبره أنه سيجزى جزاء حسنا حينما يولد مرة أخرى فى المستقبل ، فإنى قد أشفيت على الموت بعد أن تناولت الطعام الذى كان قد أعده لى ، فإن خشيت أن يكون فى شك من ذلك ، فأخبره أنك سمعت هذا الكلام يجرى على لسانى ، ثم أنبئه أنى ظفرت فى حياتى بهديتين عظيمتين تفوقان غيرهما من الهدايا ، أما الأولى فهى التى ظفرت بها تحت شجرة العرفان ، وأما الثانية فهى التى قدمها لى چوندا قبل وفاتى » .

ثم استأنف الركب سيره ، وبعد أن توقف فى الطريق عدة مرات وصل إلى نهر هيرنياڤاتى Hiranyavati على مقربة من كوسينارا ، وعلى شاطئ هذا النهر حط الركب الرحال ، وألقى المعلم عصا التسيار ، وأقام للراحة للمرة الأخيرة . وهنالك اضطجع المعلم تحت أشجار السال وجعل رأسه نحو الجنوب ، ثم أخذ يتحدث إلى آنادا .

وكان حديث المعلم طويلا فى جد وصراحة ، وكان يدور حول دفنه ، وحول المبادئ التى يجب على جماعة الدراويش أن يتبعوها بعد وفاته . وحين اقترب الحديث من نهايته وأرخى الليل سدوله خارت قوى آنادا ، فأوى إلى مكان قصى وأخذ يبكى . وأحس بوذا بفراق ابن عمه وفرقه فاستدعاه ، وأخذ يسليه ، ويعده بأنه سيحظى بمرتبة النيرڤانا ، وجعل يذكره بما سبق أن كرره عدة مرات وهو : أن جميع الأشياء فى تحول .

وكان مما قاله : « آنادا ! لا تبك ; ولا تك فى ضيق من أمر هذه الحياة ، إنك تعلم علم اليقين ما قلته من قبل ، وهو أننا سوف نفارق كل عزيز علينا عاجلا أو آجلا ، وأن أجسامنا التى تحتوى على الطاقة التى تمدها بالنشاط والقوة ، تشتمل فى الوقت نفسه على أسباب عطبها وفنائها . وهل يمكن أن يبقى ما هو مركب من عناصر دون أن يلحقه العطب ثم الانحلال ؟ إنك أنت نفسك سوف تتحرر من عالم الوهم ، عالم الحس الذى لا ينفك قانون التحول يؤثر فيه » .

ثم التفت جوتاما إلى سائر تلاميذه وأخذ يحدثهم عن عطف آنادا عليه . وإخلاصه فى ملازمته ، والنهوض بخدمته . وكان مما قاله لهم : « أيها الأحباء ! اذكروا أن آنادا قد قام على خدمتى سنين طوالا فى إخلاص ومحبة » .

٤ — وحوالى منتصف الليل أقبل سُبهادرا Subhadra أحد فلاسفة البراهمة ليسأل بوذا الأكبر بعض أسئلة . ولكن آنادا خشى أن يطول النقاش

فلا يقوى المعلم المريض على تحمله ، فهمّ أن يحول دون وصول الفيلسوف إلى بوذا. ولكن بوذا سمع جلبة وضوضاء فسأل عن السبب فيها ، ولما علم حقيقة الأمر أشار بأن يسمح للفيلسوف بالدخول . فلما حضر سأل بوذا عما إذا كان العظماء الستة كبار المعلمين يعرفون جميع المبادىء والقوانين ، أم أن بعضهم لا يعرفونها ، أو يعرفون بعضها معرفة جزئية لا غير .

فأجاب جوتاما : «إن الوقت لا يسمح بالجدل في هذا الموضوع . وليس هنالك إلا طريق واحد للوصول إلى الحكمة الحقيقية ، ذلك هو الطريق الذى رسمته ، وقد اتبعه كثير من الناس فأفلحوا فى التغلب على الشهوة والغرور والغضب وغيرها من أمراض القلب ، وبذلك حرروا أنفسهم من ربقة الجهل والشك والاعتقاد الفاسد ، وظفروا بهدوء النفس وسعادة الروح ، وملأت قلوبهم الشفقة والرحمة الشاملة لجميع الكائنات ، وحظوا بالنيرڤانا حتى فى حياتهم هذه » .

« سُبهادرا ! إنى أتحدث إليك عن أشياء لم أخبُرْها بنفسى ، ولم تقع فى دائرة تجاربى فى حياتى ؛ فإنى منذ أن بلغت التاسعة والعشرين حتى الآن كنت أجاهد فى سبيل الوصول إلى الحكمة الكاملة ، وباتباع الصراط المستقيم قد وصلت إلى النيرڤانا » .

وكان لهذا الحديث آثار بالغة فى نفس سُبهادرا فأبدى رغبته فى أن ينضم فى الحال إلى جماعة الدراويش أتباع بوذا . وكانت العادة ألا يسمح لأحد بالاندماج فى هذه الجماعة إلا بعد أن يقضى أربعة أشهر فى التلمذة والاستعداد للقبول فى جماعة الدراويش ، ولكن بوذا استجاب إلى رغبة الفيلسوف ، وسمح له بالدخول فى الطائفة قبل أن يقضى شهور الإعداد ، ولعل ذلك التسامح كان جزاء للفيلسوف على إخلاصه فى الطلب .

٥ — والتفت جوتاما إلى أتباعه وقال : —

« لا تظنوا — بعد أن أمضى إلى سبيلى ، وتنتهى حياتى بينكم — أن بوذا قد تركـكم ، ولم يبق له وجود بينكم ، فإنى إذا ذهبت تركت بينكم كلمانى ، وتوضيحاتى للأسرار الخفية التى تنطوى عليها حقائق الأشياء ، وكذلك القوانين التى وضعتها لتعمل بها جماعة الدراويش ، فليـكن كل هذا رائدكم فى حياتـكم ، وبذلك تدركون أن بوذا لم يفارقـكم » .

ثم لم يلبث بوذا أن تحدث إلى أتباعه مرة أخرى ، وأخذ يحثهم على أن يحترم كل منهم زميله .

وقبيل الصباح توجه جوتاما إلى أصحابه وسألهم عما إذا كان أى واحد منهم فى شك من بوذا أو من القانون الذى وضعه لجماعة الدراويش ، وطلب ممن لديه شك فى هذا أو ذاك أن يصرح به . فلم يقل أحد شيئاً .

وعجب آنادا حين عرف أن هذا العدد الضخم من تلاميذ بوذا قد امحت من قلوبهم آثار الشك ، وامتلأت أفئدتهم يقينا ببوذا وقانونه . ولـكن بوذا أكد فى قوة مثابرة أصفيائه وأنصاره ، وثباتهم على العهد ، وقال : إن أحدث الأتباع عهداً بالدخول فى الطريقة — وهم الذين لم يتجاوزوا المرحلة الأولى من مراحلها — قد جعلوا نصب أعينهم أن يسلـكوا فى جد ودأب الطريق المستقيم : طريق الـكمال الروحانى ؛ حتى يقطعوا المراحل الثلاث العليا . وكان مما قال فى هـذا الصدد :

« لا يستطيع الشك أن يجد سبيلا إلى قلب أحد من أتباعى المخلصين » .
وبعد سكتة قصيرة قال : « استمعوا الآن أيها الإخوان ! إن هـذه نصيحتى

إليكم . إن العطب والانحلال نهاية طبيعية لكل مركّب ، فعليكم إذن أن تعملوا فى جد ومثابرة على تحرير أنفسكم » .

وكانت هذه آخر عبارة نطق بها بوذا الأكبر ؛ فما إن نطق بها حتى فقد شعوره وقضى نحبه ، وانتقل إلى مرتبه الماهانيرفانا المقدرة له ، تاركا تعاليمه فى أتباعه ومريديه لتضىء لهم سبل الهداية .

٦ — ومن غريب مايروى أن السبب فى وفاة بوذا جوتاما كان إسرافه فى تناول لحم الخنزير المقدد — وكان من بين الأطعمة التى قدمها جوندا الصائغ لبوذا وأتباعه .

وقيل إن بوذا أحس بالألم الشديد الذى أصابه من تناول ذلك الطعام فأمر أصحابه أن يمتنعوا من تناوله ، وأن يدفنوا فى التراب ما بقى منه على المائدة .

ويرجح بعض الباحثين أن خطأ ارتكب فى رواية الحادثة بهذه الصورة ، وأن هذا الخطأ ربما يرجع إلى سوء فهم سببه أن اسم أحد الأطعمة النباتية التى قدمت لبوذا وأتباعه كان يشبه اسم لحم الخنزير. أما أن بوذا أمر أصحابه ألا يأكلوا مما كان يأكل فحكاية مختلقة أريد باختلاقها بيان السبب فى أن جوتاما كان هو وحده الذى شعر بعد تناول الطعام بآلام شديدة كانت — على ما يقال — سببا فى وفاته .

وإذا صدقنا رأى القائلين بأنه لم يكن من بين الأطعمة التى تناولها جوتاما ما يؤذى ويؤدى إلى الوفاة قلنا إن السبب الحقيقى فى تلك الوفاة كان كبر السن، وكثرة المتاعب ؛ ذلك لأن جوتاما كان قد تجاوز الثمانين، ولأنه قضى سنى رسالته فى جهاد عنيف ، ورحلات مضنية .

٧ — هذا وإن وفاة بوذا الأكبر قد أحيطت بسياج من الأساطير والنوادر ، مثلها فى ذلك مثل ولادته ؛ فقد روى أن الأرواح فى الأرض والسماء اجتمعت وشاركت أتباع جوتاما وسكان كوساتاجارا فى نعيه والبكاء عليه ، وأن رجال الدين من أهل هذه المدينة ساروا فى جنازته على نغمات موسيقى الحزن يحملون باقات من الزهور ، ثم أقاموا له مأتما استمر ستة أيام .

وفى اليوم السابع حمل الجثة ثمانية من زعماء المدينة ، ونقلوها إلى ضريح أقاموه بعيدا عن المساكن ، ووضعوها فوق كومة من الخشب المعطر تمهيدا لإحراقها ، ولكن الخشب احترق من تلقاء نفسه بعد فترة من الزمن .

ثم حدث خلاف بين أتباع جوتاما وأهل المدينة حول ما خلفته النار من الجثة من عظام ورماد ، وانتهى الأمر بتقسيم تلك البقايا عشرة أقسام ظفر كل فريق من المتنازعين بقسم ، وبنوا فوقه ضريحا ، وظلت هذه الأضرحة سنين طوالا مقصد الحجاج من جميع أنحاء الهند .

وقد ورد فى بعض الروايات أن الإمبراطور آسوكا استخرج فى عهده تلك البقايا ، ووزعها مرة أخرى على ثمانية وأربعين ألف ضريح أقامها فى جميع أنحاء إمبراطوريته .

الفصل التاسع

أصـــول الديانة البوذية

(أ) الفلسفة العامة

---

١ — الإله :

لم يؤثر عن بوذا نفسه أنه تعرض للألوهية بإثبات أو نفى . ومع ذلك يُرْوى أن البوذية الأولى كانت تعترف بوجود الآلهة الذين كان يعترف بهم البراهمة ، غير أنها تقرر أن براهما نفسه عرضة للتغير والفناء ، مثله فى ذلك مثل غيره من الـكائنات ، وتنـكر أن وجوده مستمد من ذاته ، وأنه كائن روحانى مجرد من جميع شوائب المادة ، وأنه وحده هو مصدر المعرفة والإلهام .

٢ — النفس :

وتطبق البوذية الأولى مبدأ التحول الدائم والتعرض المستمر للعطب والفناء على النفوس البشرية الجزئية ؛ ومن ثم تنـكر ما كان يقول به البراهمة عن هذه النفوس ، وهو أنها مستقرة ، لا يعتريها تحول ، ولا يلحقها عطب ولا فناء .

ومع ذلك نجد أن البوذية تتأثر بالفلسفة البراهمية وغيرها من الفلسفات الهندية فى القول بمبـــدأ التناسخ : أى حياة الفرد مرة بعد أخرى بحيث تتأثر الحياة اللاحقة بالحياة السابقة تبعا لمبدأ الـكارما الذى سنشرحه فيما بعد .

وواضح أن مبدأ التناسخ يستلزم القول ببقاء الذات أو بعض عناصرها على

الأقل ، وهذا البقاء يتنافى ومبدأ العطب والفناء . فهنا تناقض يوقعنا فى مشكلة تتطلب الحل .

وقد أشار جوتاما إشارة مبهمة غامضة إلى حل هذه المشكلة فى حديثه عن مصير الفرد بعد تفرق عناصره المحققة لوجوده الشخصى . وبيان ذلك أن وجود أى فرد من بنى الإنسان إنما هو فى رأى بوذا نتيجة لائتلاف عدد من العناصر البدنية والعقلية يطلق عليها اسم الخنذات Khandhas أى المجموعات ، وهى خمس مجموعات رئيسية انقسمت فيما بعد إلى مجموعات فرعية . والمجموعات الخمس الرئيسية هى : —

(أ) مجموعة الصفات البدنية ، و — ب — مجموعة الإحساسات ، و — حـ — مجموعة الإدراكات الحسية ، و ء — ثالوث الفكر والقول والعمل ، وهـ — الحالات الشعورية الأخرى .

ولا يمكن أن يتحقق كيان الفرد إلا بوجود هذه المجموعات جميعها، واتحاد بعضها وبعض . وعند الموت تنفصم هذه الوحدة ، وتنفصل العناصر بعضها عن بعض ، فيفنى الفرد، ولا يكون له وجود باعتباره فردا مستقلا له مميزاته الخاصة — ولو بحسب الظاهر. وإنما قلنا «ولو بحسب الظاهر» لأن بوذا يقول بأن الشعور بالاستقلال الذاتى شعور وهمى خداع ناشىء عن الجهل — كما سنرى .

ومع أن الفرد بهذا المعنى الذى ذكرناه يفنى فإن مبدأ الكارما الخاص به يبقى ، وبطريقة ما لا يعرفها إلا بوذا وحده يكون هذا الكارما سببا فى أن يوجد فى بيئة مناسبة مخلوق جديد لا يتذكر شيئا عن المخلوق السابق ، مع أن وجود المخلوق الجديد يعد فى نظر بوذا من الناحية الخلقية امتدادا لوجود المخلوق

السابق . فترتب الوجود اللاحق على الوجود السابق طبقا لمبدأ الكارما هو الذى يسمى التناسخ :

هذا — على ما يبدو لنا — هو مايراه بوذا حلا للمشكلة . وهو كما ترى حل غامض فى حاجة إلى مزيد بيان .

ومن المؤكد أن ما يكتنفه من غموض وإبهام هو إحدى نقط الضعف فى الفلسفة البوذية .

٣ — العالم :

لقد أبى جوتاما أن يجارى الفلاسفة المعاصرين الذين شغلوا أنفسهم بالبحث فى المسائل الميتافيزيقية الخارجة عن حدود الطبيعة الواقعية ؛ كالبحث فى وجود الآلهة أو عدم وجودها ، وفيما إذا كان العالم أبديا أزليا لا يحده زمان ولا مكان وهلم جرا . وهو إذ يرفض الخوض فى تلك المباحث الميتافيزيقية يقف من العالم المادى الواقعى موقفا إيجابيا ، فيقصر بحوثه واهتمامه على هذا العالم كما عرفه هو ، ذلك العالم الذى تدل المشاهدات على أنه يخضع لمبدأ التحول والتغير الدائم ، وعلى أن من صفاته الحياة ، والنمو ، والعطب ، ثم الفناء .

فقد قرر جوتاما فى غير تردد أن هذا العالم الخاضع لهذه الظروف ، المتصف بتلك الصفات ، الذى لا ينفك يتغير ويتحول هو وحده الذى يعنيه ، لا غيره من العوالم والكائنات التى لا تخضع للمشاهدة والمعرفة المباشرة .

٤ — مبدأ الكارما :

تأثرت البوذية بالبراهمية فى القول بمبدأ الكارما أى الجزاء ، وهو مبدأ خضوع الكائنات والحوادث الكونية لسلسلة الأسباب والمسببات . ويتضمن

هذا المبدأ أن حياة الفرد فى عصر ما هى نتيجة حتمية لحالته أو سلوكه فى حياة سابقة . ويضرب البوذيون لذلك بعض أمثلة نسوق منها مثالين ، أما الأول فهو قصة زاهد جلس تحت شجرة، وانغمس فى تأملاته الروحانية ، وحين هم بالقيام من مقامه اصطدم رأسه بأحد أغصان الشجرة فآلمه، فحنق الزاهد على الغصن وقطعه وما إن قطعه حتى تحول جسمه وصار جسم ثعبان ؛ جزاء على ما اقترف .

وأما الثانى فهو قصة الزاهد الذى مات عطشا ؛ لأنه لم يجد ماء يشربه غير ماء به بعض حشرات صغيرة لم يستطع إخراجها من الماء ، فأبى أن يشرب الماء خشية أن يبتلع تلك الحشرات ويكون ذلك سببا فى موتها فى جوفه . فكانت عاقبة أمره النيرفانا ؛ وذلك بأن صعدت روحه إلى الملأ الأعلى .

٥ — مبدأ التناسخ :

كان مبدأ التناسخ من المبادىء المشتركة الشائعة فى الفلسفة الهندية على اختلاف صورها ، ومن ثم انتقل إلى الفلسفة البوذية . ويمكن أن نقول على وجه الإجمال إن مبدأ التناسخ نتيجة حتمية للقول بمبدأ الكارما ؛ فهما مبدأن متلازمان؛ لأنه إذا لم يكن بد من تنفيذ حكم القصاص بأن تنال الروح جزاءها فلا مناص من انتقالها بطريقة ما وبصورة ما إلى كائن آخر لتكفر عن سيئاتها إن كانت شريرة فى الحياة الأولى ، أو لتحظى بنوع من الرقى والسعادة إن كانت قد سلكت مسلك الخير فيما سبق. وهذا هو معنى قول البوذيين: إن الروح تولد مرة بعد أخرى، ولا تزال كذلك حتى تصل إلى درجة النيرفانا .

وقد استدل البوذيون على صحة مبدأ التناسخ بالمشاهدة ، فقالوا إننا نرى فى الحيوان بعض صفات الإنسان ، وفى الإنسان بعض صفات الحيوان ؛ فإن لدى

الحيوان قابلية للتعليم، ومعرفة ضروريات الحياة، والقيام بأعمال بعضها متقن محكم وصل إلى إتقانها من غير معلم أو مرشد، ولديه علم بالتوالد بطريق المباضعة، ومعرفة بتربية الوليد وتعليمه أخلاق أبويه وعادات أبناء جنسه، وفيه حنو وائتناس بالإنسان إذا تألفه واستماله إليه بالرفق وحسن المعاملة. ومنه ما يعقل عن الإنسان ويفهم ما يقوله ويعمل به؛ فيقف عندما يقول له: قف، ويقدم عندما يستدعيه إليه من بعد، ويفهم منه الإشارات اليدوية فيذهب هنا وهناك، وذلك كله إنما يتم — فى نظرهم — بتأثير الروح المنتقل إليه عن إنسان فيرد على الجسم الذى يحل فيه ما علمه عندما كان فى جسم الإنسان.

هذا فى الحيوان أما الإنسان ففيه من يميل إلى النفرة والعزلة، والافتراس والاغتيال، وكراهة أصناف من الحيوان أو البنات أو المعدن مما يكرهه بعض أجناس الحيوان، ومنه من يميل إلى الشجاعة أو الجبن، أو الكرم أو الشح، أو السكون أو البطش، أو النفع أو الضر، أو الخمول أو الظهور، أو اللين أو القسوة، أو غير ذلك مما هو من خصائص الحيوان. وما ذلك إلا بتأثير الروح الآتى له من حيوان عدم هيكله.

قال صاحب الحراب: وبطلان ذلك ظاهر لمن له أدنى ذوق[1].

٦ — النيرفانا:

كان من أهم أهداف بوذا أن يشرح للناس الطريقة التى يمكن بها إنقاذ الإنسان إنقاذا نهائيا من ربقة الكارما، وعدم اضطراره لأن يحيا أو يولد مرة أخرى؛ وذلك بأن تصفو روحه، وتتخلى عن الأوزار التى تتطلب تناسخها

---

(١) راجع كتاب «الحراب فى صدر البهاء والباب» لمحمد فاضل ص: ١٠٤.

وانتقالها إلى كائن آخر تسلك فيه مسلكا خلقيا طيبا يبرئها من تلك الأوزار ، أو يجعلها صالحة للاتصال بالملأ الأعلى وفقا لمبدأ النيرڤانا .

وكان يقصد بالنيرڤانا فى أول الأمر : انتقال الروح إلى الملأ الأعلى بعد أن يحيا الفرد حياة خلقية صافية راقية لاتضطره لأن يحيا حياة أخرى كما قلنا من قبل . ولكن هذا المبدأ طرأ عليه فيما بعد معنى جديد ، إذ قصد به : وصول الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحانى بتطهير نفسه ، والقضاء على جميع رغباته المادية .

والفرق بين المعنيين واضح ؛ فالمعنى الأول يقضى بأن هذا المبدأ لايتحقق إلا بعد الموت . أما الثانى فيقضى بأنه من الجائز أن يصل المرء إلى مرتبة النيرڤانا فى حياته — إذا أفلح فى الوصول إلى الدرجات العليا من درجات الرقى الروحانى ، ولم يكن ثمة داع إلى تناسخ روحه .

ويزيد كاونتز هذا المعنى وضوحاً فيقول : « إن النيرڤانا هى الحالة التى يقف فيها التناسخ الذى تتعرض له دائما النفوس المعذبة . وتتضمن هذه الحالة فناء الرغبة، وفناء الشعور . ومع أن البوذيين لا يذكرون أنها تتضمن انتهاء الحياة أيضا ، فإن ذلك هو النتيجة المنطقية للتفكير البوذى ؛ ذلك لأن الوجود نفسه — فى رأى البوذيين — هو الشر الذى على الإنسان أن ينقذ نفسه منه . ومن الممكن أن نعرف النيرڤانا من ناحيتها السلبية بأنها هى : عدم الرغبة ، وعدم الشعور ، وعدم الحياة ، وكذلك عدم الموت . وأن نعرفها من ناحيتها الإيجابية بأنها : الحالة التى تتحرر فيها الروح من التناسخ ؛ أى الحالة التى لايضطر فيها الإنسان إلى أن يموت ثم يولد مرة أخرى أو أكثر[1] » .

---

(١) راجع : A Popular History of Philosophy by M. M. Kaunitz p. 40—41.

ولا يخفى أن المراد « بعدم الحياة » انتهاء الحياة المادية فى الأرض ، وأن المراد « بعدم الموت » العروج إلى الملأ الأعلى حيث تبقى الروح مستمتعة بحياة روحانية سعيدة .

هذا عرض إجمالى للفلسفة البوذية الميتافيزيقية فى عصرها الأول . ومنه ترى أوجه التشابه والتخالف بين البوذية والبراهمية التى كانت شائعة فى عصر بوذا ، وهى التى خرج عليها ، وأعلن أن نظام الطبقات الذى وضعته نظام فاسد ، وأنه ليس للرهبان ولا لغيرهم من رجال الدين أن يدعوا أنهم أفضل من غيرهم من الناس بحكم أنهم مقربون إلى براهما .

الفصل العاشر

أصـــــول الديانة البوذية

(ب) الفلسفة الأخلاقية

أولا : الأخلاق البوذية :

١ — ذكرنا فى الفصل السابع الموعظة الكبرى التى ألقاها بوذا على أصدقائه الخمسة ، وبالنظر فيها نجد أنها تتضمن الأصل الأول من أصول التفكير البوذى الأخلاق ، وهو مبدأ ضبط النفس ، ونجد فى هذه الموعظة أيضا إشارة إلى الحقائق الأربع السامية ، والطريقة الثمانية العناصر .

أما الحقائق الأربع التى يبنى عليها بوذا فلسفته الأخلاقية فهى :

أولا : أن الوجود كله هم وحزن . ومعنى ذلك أن الحياة بجميع صورها ليس فيها إلا ما يؤلم الإنسان ويضيره ، ويسبب له الهم والغم . وهذه حقيقة واقعية لامناص من الاعتراف بها فى رأى جوتاما ؛ فكل فرد يولد وينمو ، ويدركه المرض ، وتلحقه الشيخوخة ثم يموت ، وهو فى كل مرحلة من هذه المراحل ، وفى كل صورة من هذه الصور يعانى كثيرا من الآلام ، فيأسف عند مفارقة الأحباب ، ويغضب أشد الغضب إذا اعتدى عليه ظالم له ، ويتألم إذا أصابه سوء أو حل به مرض . وقد تشتد رغبته فى الحصول على بعض المآرب ، فإذا لم يحصل عليها ضاق صدره ، وساءت حاله .

ثانيا : أن سبب الغم والحزن هو الشهوة ؛ فالإنسان باتصاله بالحياة الخارجية المادية تتحرك فى نفسه الشهوات الحسية والرغبات الدنيوية ، فتتوق نفسه إلى الاستمتاع بملذات الحياة ومباهج العيش . وهو فى الغالب لايستطيع تحقيق أمانيه فيمتريه الحزن، ويحيط به الغم من كل جانب . فالشهوة منبع الحزن، ومصدر الهم والغم .

ثالثا : لكى يتخلص الإنسان من الغم ويهزم ما يشعر به من حزن يجب عليه أن يتغلب على تلك الشهوة ، وأن يقطع كله صلة تربطه بالحياة المادية . فهذا الحكيم يرى أن لاشىء يحرر الإنسان من أغلال الحياة وينقذه من آلامها إلا قتل الشهوات ، ومحو الرغبات .

رابعا : لكى يصل الإنسان إلى هذا الغرض — وهو القضاء على كل أثر من آثار الشهوة — يجب عليه أن يسلك المسلك الثمانى العناصر ، أى أن يتبع فى سلوكه فى الحياة ثمانية مبادىء تسبب لنفسه السعادة ، وتكفل لها التحرر من أغلال الحياة ومتاعبها . وهذه هى التى تسمى الطريقة الثمانية العناصر .

٢ — أما هذه المبادىء الثمانية فهى : —

١ — العقائد الصحيحة .

٢ — الأغراض الشريفة .

٣ — القول الطيب .

٤ — العمل الصالح .

٥ — اتباع خطة قويمة فى الحياة وكسب العيش .

٦ — بذل الجهد الصادق .

٧ — الاهتمام .

٨ — صدق التأمل الروحانى .

ويقصد بالعقائد الصحيحة : الإيمان بالحقائق الثلاث الأولى المتعلقة بالهم والحزن التى ذكرناها فيما سبق .

ويراد بالأغراض النبيلة : الاتجاه دائما إلى عمل الخير والتفكير فيه ، واجتناب الاتجاه إلى الشر والتفكير فيه .

ويتضمن القول الطيب : حفظ اللسان من الكذب ، والنميمة ، والسب ، والاستهزاء بالناس .

ويدخل فى العمل الطيب : كل ما ينفع الناس . وهذا يتضمن الابتعاد عن الأعمال الشريرة ، كالاعتداء على الأرواح أو الأموال أو الأعراض .

ويراد باتباع خطة قويمة فى الحياة وكسب العيش : أن يحسن الإنسان معاملة الناس ، وألا يكسب المال إلا من وجوهه التى تقرها الأوضاع المقبولة .

ويراد بالجهد الصادق : أن يبذل الإنسان فيما يتناوله من أعمال جهدا صادقا ، فلا يتراخى فيها . ويدخل فى ذلك أن يحاول المرء دائما أن يغرس فى نفسه الاتجاهات الطيبة المقبولة ، وأن يبعد عنها النزعات الخبيثة الشريرة .

والاهتمام حالة نفسية تحمل الإنسان على الانغماس فى عمله ، ومتابعة السير فيه ، دون الشعور بيأس فى الحال ، ودون التعلق بأمل فى المستقبل .

ومعنى صدق التأمل الروحانى : التفرغ للتبتل والرياضة الروحانية ، والانغماس فيها كى يصل الإنسان إلى الغرض الأسمى وهو النيرفانا .

٣ — ومن أبرز مبادىء بوذا — بالإضافة إلى ما تقدم — مبدأ الحب الشامل . وفى ذلك يقول :

« كما أن حب الأم يحملها على أن تحرص على حياة ولدها أو ابنها الوحيد — ولو أدى ذلك إلى أن تضحى بحياتها — فكذلك يجب على الإنسان أن ينمى فى نفسه حبا لاحد له لجميع الكائنات ، وأن يشعر قلبه المحبة الخالصة من جميع الشوائب المصلحية لكل مافى العالم من فوقه، ومن تحته، ومن بين يديه. وعلى الإنسان أن يكون شعاره الاهتمام فى كل لحظة من لحظات حياته ، وفى كل وقت من أوقاته يقظته ؛ ماشيا كان ، أو جالسا ، أو مضطجعا . إن هذه الحالة القلبية هى أفضل مافى الوجود ، إنها التجربة النبيلة حقا » .

٥ — وبسلوك المسلك الخاضع للثمانية المبادىء يستطيع الإنسان أن يفهم مبدأ تسلسل الأسباب والمسببات (الكارما)، ويدرك أسرار ذلك الغل الذى يقيد نشاطه ، ويربطه بالحياة المادية الأرضية .

ويشبه هذا الغل سلسلة ذات ثمانى حلقات يصورها بوذا على النحو الآتى : —

١ — الوجود أو الحياة هم وحزن . ومنشأ هذا الحزن هو أن الإنسان يولد ويوجد فى هذا العالم . وقد وجد الإنسان فى هذا العالم لأنه ينتمى إلى عالم الأحياء .

٢ — وإنما يبقى الإنسان حيا لأنه يغذى نفسه ويعزز وجوده .

٣ — والشهوة هى التى تدعوه إلى هذه التغذية .

٤ — ومنشأ هذه الشهوة هو الإحساس .

٥ — ومنشأ هذا الإحساس هو الاتصال بالعالم الخارجى ؛ فالاتصال بالعالم الخارجى إنما يكون بالإحساسات التى هى وظائف الحواس ، فهى وسائل الصلة بين الإنسان والعالم الخارجى .

٦ — وهذا لايكون إلا على أساس أن كل فرد من بنى الإنسان شخص مستقل قائم بذاته ، له وجود وكيان غير وجود العالم الخارجى وكيانه . وهذا الوجود الشخصى المستقل يصحبه شعور بالذاتية المستقلة التى يعبر عنها بضمير المفرد المتكلم وهو « أنا » .

٧ — وهذا الشعور بالذاتية نتيجة أو أثر من آثار حيوات سابقة .

٨ — وهذه الحيوات السابقه قد حجبت الشعور بما أضفت عليه من غشاوة الجهل بالحقيقة الخالدة .

فالسبب الأساسى فى الحياة على الأرض وفيما يعانيه الإنسان فى هذه الحياة من بؤس وشقاء وهم وحزن هو الجهل بالحقيقة الخالدة وهى وحدة الوجود . وهو فى الوقت نفسه السبب فى اضطرار الروح إلى التناسخ أو الرجعة، أى إلى أن تحيا حياة أخرى تحظى فيها بتعميم المعرفة .

ومن ثم كان الجهل أكبر الكبائر ، وأشنع الرذائل ، وكان سبيل الإنسان إلى التحرر من أغلال الهموم والأحزان أن يضيء جوانب نفسه بنور المعرفة . وهذا أمر سهل ميسر لكل إنسان .

وليس من الممكن أن تتحرر النفس من تلك الأغلال بالعبادات الظاهرية ، ولا بالحرمان من الطعام والشراب ، وإنما تتحرر بضبطها ، وكبح شهواتها حتى لاتتطلع إلى ملذات العيش ومباهج الحياة الخداعة .

٦ — ولا يكتفى جوتاما بإذاعة المبادىء الثمانية الإيجابية السابق ذكرها، بل إنه يضيف إليها ويرتب عليها عشر وصايا سلبية ، خمس منها عامة موجهة إلى جميع الناس ، وخمس خاصة بالرهبان وتلاميذ بوذا .

أما الخمس العامة فهى : —

١ — لا تقتل .

٢ — لا تسرق .

٣ — لا تزن .

٤ — لا تكذب .

٥ — لا تتناول مسكرا .

وأما الخمس الخاصة فهى . —

١ — لا تتناول طعاما يابسا بعد الظهر .

٢ — لا تحضر حفلات الرقص والغناء والتمثيل .

٣ — لا تتزين بأى نوع من أنواع الزينة ، ولا تستخدم أى نوع من أنواع الطيب .

٤ — لا تنم على فراش وثير .

٥ — لا تقبل من أحد ذهبا ولا فضة .

٧ — فإذا نهج البوذى المنهج المرسوم له ، واتبع الأوامر ، واجتنب النواهى فإنه يحطم بالتدريج الأغلال العشرة التى تقيد روحه ، وترغمها على الرجعة لتصل إلى درجة الكمال .

وهذه الأغلال هى : —

١ — توهم الذاتية أو الانفصال عن العالم الحقيقى ، وهو وهم ينافى مبدأ وحدة الوجود .

٢ — الشك .

٣ — الاعتقاد بفائدة الأعمال والعبادات الظاهرية .

٤ — الانغماس فى الشهوات الحسية .

٥ — سوء النية وخبث الطوية .

٦ — حب الحياة فى العالم المادى .

٧ — حب الحياة المستقلة فى عالم غير مادى .

٨ — الغرور .

٩ — الاعتقاد بطهارة النفس .

١٠ — الجهل .

وبتحطيم هذه الأغلال يتم تحرير النفس ويتحقق إنقاذها ، ويصير البوذى المحرر التقى (أرهاط) فى غنى عن أن يحيا حياة أخرى .

ثانيا : الجماعة البوذية :

١ — لم يضع بوذا نظاما معينا لممارسة الشعائر الدينية ، وتطبيق المبادىء الأخلاقية، ولم يشر بتكوين طائفة خاصة من القسس والرهبان. ولكن أتباعه كانوا جميعا طائفة أو جماعة واحدة ، يتعاون أفرادها على الوعظ والإرشاد ، ويلتزمون حياة عمادها ضبط النفس وقهر الشهوات .

ولم يكن الدخول فى هذه الجماعة يتطلب اتباع سلوك قاس يتضمن تعذيب النفس، كما كان يفعل البراهمة وغيرهم فى عصر بوذا . وكل ما كان ينتظر ممن يريد الانتظام فى سلك هذه الجماعة أن يهجر ملذات الحياة الدنيوية ، ويتنازل عن

كل يمتلك من مال أو عقار ، ثم يلتزم فى حياته الأخلاق الفاضلة البريئة من جميع شوائب النفاق والخداع والغرور .

وكان يكتفى منه فى البداية بأن يعلن فى إيمان وإخلاص رغبته المؤكدة فى أن يتبع مبادىء بوذا الإنسان المستنير أو الحكيم . ثم كان عليه بعد ذلك أن يتقبل بقبول حسن العقيدة الثلاثية العناصر وهى : إنى أتحصن ببوذا ، وإنى أتحصن بمبادئه ، وإنى أتحصن بجماعته .

٢ — ومع أن بوذا كان يطالب أتباعه بالتزام الدقة فى ضبط النفس فإنه لم يطالبهم بالغلو فى تعذيب أنفسهم والقسوة عليها ، ولا بالتغاضى عن حاجاتهم ومطالبهم الشخصية . ومعنى ذلك أن بوذا لم يفرض على جميع أتباعه واجبات خاصة ينهضون بها على السواء ، بل إنه كان يعطيهم الحرية التامة فى أن يطبق كل منهم فى حدود طاقته المبدأ العام وهو : ضبط النفس، والصبر على هجر ملذات الحياة ؛ فقد وجد مرة أن فريقا من أعضاء جماعته لا تسمح لهم استعداداتهم بضبط النفس واحتمال الشدائد ، إما لعجزهم عن ذلك ، وإما لأنهم لم يألفوه ، فتسامح معهم ، ولم يرهقهم من أمرهم عسرا ، ولم يرغمهم على أن يسلكوا مسلك غيرهم من الأقوياء القادرين ؛ ومن ثم لم يكن فى طريقته مايدعو إلى القلق أو الصراع النفسانى الذى ينجم فى بعض الحالات عن شعور المتدين بالقصور أو التقصير فى استكمال مظاهر التدين الشكلية .

٣ — وكان بوذا يحرص دائما فى معاملة أفراد جماعته على اتباع مبدأ الحرية الفردية ؛ فقد روى أن ديفاداتا طلب من المعلم الأكبر أن يجعل تعاليمه محكمة دقيقة غير قابلة للتأويل ، خشية أن يذهب أتباعه فى تأويلها مذاهب شتى ، وينقسموا من بعده شيعا وأحزابا . ولكن بوذا رفض ذلك ، مستندا فى رفضه إلى أن القوانين

الدقيقة الجافة الجامدة التى لاتقبل التأويل قد تكون عقبة فى طريق كثير من الناس ؛ فإن اختلاف ظروف الحياة يتطلب المرونة فى وضع القوانين ، ويستدعى جعلها بحيث تصلح لمواجهة الظروف المختلفة باختلاف الزمان والمكان .

٤ — وكان بوذا يقدر ظروف أتباعه ، ويعطف عليهم إلى أقصى حد ؛ فلم يشق عليهم ، ولم يطالبهم إلا بالسير بقلوب صافية طاهرة مخلصة فى طريق النيرفانا ، وبتحرير أرواحهم بالسعى الجدى نحو السيطرة التامة على شهواتهم .

ومما روى فى تأييد ذلك أن رجلا اسمه أناثاپينديكا — وكان من عظماء الأثرياء الذين يعطفون على الفقراء والمساكين — جاء بوذا وسأله عما إذا كان الأفضل أن ينزل عن ماله وثروته ، ويعيش عيشة الرهبان الدراويش الذين يسيحون فى الأرض ، ولا يتخذون لهم مأوى خاصا يملكونه . فأجاب بوذا :

« إن كل إنسان يستطيع أن يحظى بنعيم الحياة الطيبة المستقيمة إذا اتبع فى حياته الطريقة الثمانية الشعب . وكل من تعلق قلبه بالشهوة يحسن أن ينبذها ؛ فإن ذلك أفضل من أن يدعها تسمم قلبه . ولكن من لم يشغف قلبه بالثروة وجمعها فلا حرج عليه إذا امتلكها ، وأنفقها فى وجوهها الصحيحة ، فإنه يصير حينئذ نعمة وبركة لمواطنيه » .

وفى المعنى نفسه يقول بوذا مخاطبا أتباعه :

« إنى أقول لكم : حافظوا على مراكزكم فى الحياة ، وأقبلوا فى مثابرة وصبر على قضاء مآربكم فيها ، فإن الحياة ، والثروة ، والسلطان ليست هى التى تستعبد الإنسان ، ولكن شغفه بالحياة والثروة والسلطان هو الذى يجعله عبدا لشهواته » .

ولم يكن من الضرورى أن يبقى الفرد طول حياته عضوا فى جماعة بوذا ، أو تابعا من أتباع طريقته ، بل إن لكل فرد الحرية فى أن يترك الجماعة والطريقة، وما عليه — إذا أراد ذلك — إلا أن يقول : «إنى لست من المؤمنين منذ الآن » . ثم يترك الجماعة . وإذا أراد المرتد أن يعود إلى الجماعة فلم يكن لأحد أن يلومه أو يمنعه . وكل ما يحدث أن يسأل : ألا تزال من الكافرين ؟ فإذا أجاب أنه يؤمن كل الإيمان بالطريقة كان له أن يعود ، فيصير عضوا من أعضاء الجماعة كما كان .

٥ — وبعد فهذه تعاليم بوذا الخلقية ، وتلك طريقته التى دعا الناس إلى اتباعها . ولا ريب أن من ينظر فيها نظرة بريئة خاليه من شوائب التعصب يجد فيها الجمال والنظام والقوة . وقد زاد فى جمالها وقوتها بلوغ شخصية مذيعها من الجمال والقوة درجة لم يألفها الناس من قبل . ولم يعد أحد يفكر فى شخصية بوذا الأكبر — الذى يوصف أحيانا بأنه ضياء آسيا — على أنها أسطورة ، بل إن الأغلبية الكبرى من المفكرين ينظرون إليها على أنها شخصية مثالية كاملة ، تركت لمن خلفها مثلا خلقية عليا واقعية ، لافى المبادىء فحسب ، بل فى الأعمال كذلك .

ولقد بلغت شخصية بوذا من الكمال درجة جعلت المعارضين له من أرباب المذاهب الدينية الأخرى يعتدون بالناحية المشرقة من نواحى حياته ، وينظرون إليه نظرة إعجاب وتقدير ؛ فقد أدخلته الديانة الهندوكية — التي ظهر أمرها من بعده — فى زمرة الأخيار ، بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك فقالت بأنه كان تاسع الأشخاص الذين حلت بهم روح ڤيشنو المنقذ

الربانى ، ومن ثم كان فى نظر تلك الديانة القطب المختار لهـــداية الناس فى عصره .

ولما جاءت المسيحية أدخله القديس يوحنا الدمشقى فى زمرة القديسين ، وأطلق عليه اسم القديس يوسفات .

وقد قلت فيما سبق إنى أرجح أن القرآن الـكريم يشير إلى بوذا هذا بقوله تعالى « والتين » . وقد شرحت هذا الرأى فى آواخر الفصل السادس من هذا الـكتاب — فارجع إليه إن شئت .

الفصل الحادى عشر

أصول الديانة البوذية

(ج) شرح وتعليق

١ — يتبين[1] مما سبق أن الأساس الذى تقدم عليه تعاليم بوذا جوتاما هو أن الوجود فى هذه الدنيا تصحبه المشقات، وأن الحياة كلها متاعب — كما يقول أبو العلاء المعرى ، وأن الغرض من هذه التعاليم هو رسم خطة لإنقاذ الإنسان من ربقة الوجود المادى ، وتحريره من أغلال الشهوة التى تربطه بتلك الحياة المادية ، وأن الوسيلة التى بها تتحطم تلك الأغلال هى أن يسلك المرء فى حياته مسلكا يؤدى إلى إخضاع شهواته ، ويتبع طريقة تفضى إلى ضبط نفسه فى أفكاره وأقواله وأعماله على السواء ، وكذلك فى جميع العادات التى يتناولها فى حياته العادية اليومية .

وقد شرح بوذا الطريقة الثمانية العناصر التى يؤدى أتباعها إلى تحرير النفس والحصول على السعادة .

وفيما عدا ذلك لم يضع بوذا قوانين أو قواعد معينة محدودة يجب على أتباع الطريقة البوذية السير بمقتضاها فى ممارسة شئونهم الدينية ؛ فقد كان دأبه دائما أن يجتنب وضع مثل تلك القوانين الجامدة التى قد تصير عوامل فعالة تدفع أتباعه إلى التزمت الدينى ، ومن ثم نرى أنه لايطالب أتباعه وتلاميذه إلا

(١) راجع : Oriental Philosophy, by F. Grant p. 51 - 54

بأمرين أساسيين هما : الزهـــد فى متاع الدنيا الزائل ، والاستمساك بالمثل الخلقية العليا .

٢ — وقد سلك بوذا فى تعاليمه مسلك العظماء من المصلحين الدينيين والاجتماعيين؛ ذلك أن مبادئه طبعت بطابع السهولة واليسر، بحيث لا يجد أحد فى اتباعها أية غضاضة ، ولا يفـكر أحد فى الحصول من ورائها على جاه أو منصب أو منزلة اجتماعية ممتازة ؛ ومن ثم نجد من بين أتباعه الملوك والدراويش والخاصة والعامة من الناس .

وكانت الطريقة التى اتبعها فى تلقين مبادئه وشرحها هى الطريقة نفسها التى يتبعها عظماء الأنبياء والمصلحين ، تلك هى : طريقة الوعظ ، وضرب الأمثال ، أو المناقشة ، وتلقين الدروس كلما سنحت الفرصة لذلك .

وتدل الروايات أن أتباع بوذا لم يأخذوا عنه مبادئه قضايا مسلمة ، بل كانوا يجادلونه ويناقشونه ويسألونه ، وكان يجيب عن أسئلتهم ، ويظل يجادلهم إلى أن تنتهى المجادلة بالإقناع أو الاقتناع .

٣ — وكانت الفـكرة المركزية التى تدور حولها جميع تعاليمه ، والتى ألح فى إبرازها لأتباعه : أن الإنسان تهاجمه الشهوات والرغبات ، وتغير عليه دائما الأوهام والجهالات ، فإذا نجح الإنسان فى قهر تلك الشهوات، وقمع هذه الرغبات، والتخلص من الأوهام والجهالات ، والصمود فى وجه شدائد الحياة ومحنها فقد فاز الفوز الأكبر ، ولم يعد بعد فى حاجة إلى أن يتعب نفسه بالتفـكير فى شئون الأرض ، أو بالتطلع إلى إلهام السماء .

فالتغلب على المحن التى تمتحن بها النفس فى الحياة هو الهدف الرئيسى لاتباع المبادىء التى أذاعها بوذا . وكثيرا ما كان إلحاحه فى بيان هذه الفـكرة

سببا فى أن أعداءه كانوا يرمونه بالإلحاد ، ويتهمونه بأنه يدعو إلى حرمان الناس الاستمتاع بمزايا الحياة الدنيا، وإلى النظر إليها نظرة تشاؤم ، وكانوا يستدلون على ذلك بعباراته وأقواله فى هذا الصدد .

ولكن هؤلاء لم يفهموا غرض بوذا الحقيقى ، ولم يدركوا مغزى تعاليمه الواقعى ؛ فقد كان يأبى أن يسمح لأتباعه أن يورطوا أنفسهم بالانغماس فى التفكير فى الحياة الأخرى ، ويهملوا السعى الجدى فى تنظيم سلوكهم ، وضبط أنفسهم فى الأفكار والأقوال والأعمال . وقد أدرك — كما أدرك كونفشيوس وزرادشت — أن سراب النقاش والجدل الفلسفى البراق البعيد الغور كثيرا مايغرى الإنسان ، ويحول فى سهولة ويسر بينه وبين طريق إذلال النفس الذى هو طريق الخير والنور .

يدلنا على ذلك قوله لأتباعه : « أى نوع من أنواع النصر والغلبة يمكن أن تنزله علينا السماء ؟ يجب أن نكون غزاة فاتحين هنا فوق الأرض » .

٤ — ولا تتضمن تعاليم بوذا منع الناس أن يعملوا ما يوصلهم إلى الاستمتاع بملذات الحياة الأخرى ، ولكن قد وقر فى نفسه أن ميدان الأعمال الإنسانية هو هذه الأرض ، وأن موسمها هو الحياة التى يقضيها الإنسان فى هذه الحياة الدنيا . بل إنه ليذهب إلى أبعد من ذلك فيقرر أن الإنسان يستطيع أن يستغنى عن مدد السماء بالأعمال التى يتناولها على سطح الأرض بنجاح .

وعلى الرغم من أن البراهمة المعادين لبوذا فى عصره قد حاولوا أن يصموه بوصمة الإلحاد فإنهم لم يستطيعوا مطلقا أن يبرهنوا على أنه قد خالف فى تعاليمه تعاليم الفيدا ؟ لأنه لم يزد على أن أول تأويلا حديثا النصوص التى تمسك أعداؤه المعاصرون له بحرفيتها ، ولم يعتدوا بروحها ، ولم يدركوا أسرارها ، بل إنهم

اختزنوها فى نفوسهم ، وتركوها متراكمة حتى حجبتها طبقات بعضها فوق بعض من ظلمات الجهل وسوء الفهم .

٥ — ومع أن بوذا قد حرم على أتباعه أن يحيوا عبيدا لشهواتهم وملذاتهم المادية فإنه قد استنكر الغلوّ فى الزهد والتقشف ، ولم ير أنه يدل على فضيلة نفسية ، بل قال إنه ينطوى على نوع من الغرور إذا قصد لذاته . يدل على ذلك قوله : « إنه لا يكفى (فى الاستدلال على صفاء النفس وطهارة القلب) أن يكون الإنسان عاريا ، أو ملطخا بالطين ، أو مبتلا بالماء ، أو أن يجلس تحت شجرة ، أو أن يعيش بمعزل عن الناس ، أو أن يحرم نفسه الطعام والشراب حتى يموت » . وإنما الضرورى هو صفاء الباطن ، وتطهير القلب والروح . « وإذا كان الملبس قذرا ملوثا فإن لونه سيظل قبيحا معتما ، ولو غمسه الصباغ فى صبغة زرقاء أو صفراء أو حمراء ، أو غيرها من الألوان » .

« ولماذا ؟ لأن الملبس ملوث قذر . ولسنا نتوقع إلا هذه النتيجة نفسها إذا كان القلب قذرا قد لوثته الرذائل » .

وكثيرا ما تحدث بوذا عن الطريق الوسط ؛ فإن من أبغض الأشياء لديه التزمت أو التعصب الدينى ؛ لأنه يحول بين الإنسان وبين هدوء النفس ، والتفكير الناضج الواضح ؛ فكما أن أوتار الآلة الموسيقية لا تحدث نغمة رخيمة ولا لحنا شجيا إذا كانت مرخاة أو بولغ فى شدها ، فكذلك كل عمل يتناوله الإنسان فى حياته ؛ فإذا تراخى فيه كانت نهايته الفشل وخيبة الأمل ، وإذا بالغ فيه أشد المبالغة انتهى بالفشل وضياع الجهد عبثا .

٦ — ونعود فنقول إن فضيلة ضبط النفس تحتل المركز الأول من تعاليم بوذا الخلقية .

فإنه يقول: «لأن يضبط الإنسان نفسه ، ويسيطر عليها، أعظم وأفضل من أن يتغلب على ألف رجل فى ميدان القتال » .

ومن تعاليم بوذا الخلقية السامية التى تنشأ عن ضبط النفس : الصبر ، وقوة الاحتمال ، والشفقة والعطف على الناس . وقد كان هو نفسه طول حياته شديد العطف على أتباعه ، مخلصا فى محبتهم ومحبة الناس جميعهم . وكثيرا ما كان يشتد فى تأنيب المنافقين ، وتوبيخ من ينقصهم الإخلاص والوفاء للأصدقاء .

٧ — وفى مقدمة عقائد بوذا التى استنكرها أعداؤه ، وحملوا عليه حملة شعواء لاعتناقه لها إنكاره الاعتقاد بخلود النفس وعدم قابليتها للتغير والتجدد ، ذلك الاعتقاد القائم على أساس القول بوحدة الوجود وخلوده ؛ فقد كان بوذا يعتقد أنه ليس فى هذا العالم قوة خالدة مستقرة لايلحقها التغير . وإن تيار الحياة — على حد تعبير جوتاما — أوسنة التطور — فى عرف العلم الحديث — ظاهرة دائمة، تيارها دائب الحركة ، دائم الفيضان لايقف سيره ، ولا يغيض ماؤه .

ومن ثم لايتصور بوذا ما كان يتصور معارضوه من وجود نفوس جزئية لا يلحقها تحول ، ولا يعتريها تبدل ، ينتهى أمرها إلى الاندماج فى نفس كلية ثابتة لايلحقها تحول أيضا ، بل إنه يتصور الحياة كأنها تيار أزلى أبدى فى حركة دائمة ، يسير نحو مصب لاحد له ولا نهاية . وهذا المصب اللانهائى هو أيضا فى حالة حركة تطورية أزلية أبدية .

٨ — وليس معنى توالى النشآت أو الولادات فى نظره تناسخ الأرواح ، بمعنى انتقال الأروح الخالدة من بدن إلى بدن — كما كان يرى معاصروه من البراهمة وغيرهم — بل إنه كان يرى أن حياة الفرد ليست إلا مجموعات من الصفات يسميها اسكنذات Skandhas ، وهذه المجموعات تأتلف ثم تفترق مرة بعد

أخرى فى صور مختلفة ، فينشأ عن ائتلافها بعد افتراقها حياة أخرى ، وتسير هذه الظاهرة فى تسلسل دائم دائب ، بحيث تكون حياة كل فرد بمثابة حلقة فى سلسلة طويلة تتصل كل منها بما قبلها وما بعدها، وبحيث تنشأ كل حلقة نشأة جديدة — وإن كانت متأثرة بما قبلها تبعا لمبدأ الكارما .

ويضرب بوذا للحياة المستمرة مثلا آخر هو مثل القنديل الذى حين تقترب ذبالته من الاحتراق تنقل منه شعلة إلى قنديل آخر ؛ فالقنديل الثانى ليس هو القنديل الأول عينه ، ولكنه شعلة منه ، تمتد امتدادا لشعلة القنديل الأول .

والعامل الأول المؤثر فى كيفية ائتلاف الصفات ائتلافا جديدا تنشأ عنه حياة جديدة هو مبدأ الكارما . ويمكن أن نقول — كما قلنا من قبل — إن مبدأ الكارما هذا هو مبدأ الجزاء الذى بمقتضاه يتأثر الفرد فى حياته اللاحقة بمسلكه الذى كان قد سلكه فى حياته السابقة ؛ ومن ثم كان هو المسيطر على مصيره ، المسئول عنه ؛ فإنه يجنى فى حياته الثانية ثمرة ما سبق أن غرسه فى حياته الأولى — إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

والخلاصة أن كل حياة لاحقة تتأثر بسلوك الفرد فى حياة سابقة من حيث مدى خضوعه للشهوات ، وما قام فى نفسه من أفكار ، وما صدر عنه من أقوال وأفعال . وليس فى البوذية الأولى معنى للتناسخ غير هذا .

٩ — ويبدو أن مبدأ الكارما : أى ترتب المعلول على العلة ، أو المسبب على السبب ، أو الجزاء على الذنب مبدأ مشترك بين جميع المذاهب الهندية . وفيه يقول بوذا : « إن الإنسان يولد بحسب ما خلق ، وإن جميع الكائنات تسير على سنة الكارما الوراثية . » ذلك لأن الإنسان كغيره من أنواع الكائنات يولد مزودا بالصفات

التى تتكون طبقا لتصرفاته السابقة ، فكل ما فى حياته الثانية من خير أو شر إنما هو نتيجة لأعماله وتصرفاته فى حياته الأولى .

ولا يمكن التخلص من آثار الماضى والقضاء على تأثير مبدأ الكارما إلا بإذلال النفس ، والسيطرة على شهواتها ؛ فذلك وحده يقضى على الشهوة التى هى سبب كل بلاء وشقاء فى هذه الحياة ، وهو الذى به ترتفع النفس البشرية من مستوى المغريات والنزعات المادية إلى مستوى الحياة الكاملة الذى تسعد فيه النفس ، وتحظى بحياة هادئة خالية من شوائب القلق والاضطراب .

١٠ — هذا عرض إجمالى لمبادىء جوتاما الفلسفية ، وتعاليمه الخلقية التى يقول فى التعليق عليها ويلز المؤرخ الإنجليزى المعروف ما خلاصته[١] : —

« أن المبادىء الأساسية التى وضعها جوتاما كما توضحها لنا دراسة مراجعها الأصلية هى مبادىء سهلة ميسرة . وليس هناك أدنى شك فى أن هذه المبادىء وليده تفكير رجل من هؤلاء الرجال الذين وصلوا إلى درجة من الذكاء والفطنة لم يعهدها العالم من قبل . وبين أيدينا الآن وثائق حقيقية لرءوس المسائل التى عرضها جوتاما على بساط البحث بينه وبين أتباعه الخمسه . وتتضمن هذه المسائل مبادئه وتعاليمه الأساسية » .

وتتلخص هذه المبادئ فى أن جوتاما يرى أن أنواع الشقاء والبؤس التى يعانيها الإنسان فى هذه الحياة ترجع كلها إلى الأثرة وحب النفس إلى درجة لا يشعر معها الإنسان بالرضا . فما يشعر به الإنسان من حزن وما يعانيه من هموم وآلام يرجع — فى نظر جوتاما — إلى شخصيته الغارقة فى المطامع ، وإلى شهواته

(١) راجع The Outline of History. by H. G. Wells V. I. p. 262 .

الجشمة التى هى مصدر آلامه وسبب عذابه . وسيظل الإنسان فى شقاء وبؤس طول حياته ، وستنتهى حياته بالأسى والحزن ما لم يتغلب على مطامعه الشهوانية ويقهر شهواته المادية . »

« وهناك ثلاث صور أساسية لمطامع النفس وكلها رذائل ؛ أما الأولى فهى الرغبة فى إرضاء الحواس ، وهذا هو الاتجاه الشهوانى ، وأما الثانية فهى الرغبة فى الخلود ، وأما الثالثة فهى الرغبة فى السعادة المادية . فعلى الإنسان أن يقهر هذه الرغبات إذا أراد أن يحيا حياة سعيدة . ومعنى قهر هذه الشهوات أن يكف الإنسان عن التعلق بذاته ، وعن التفكير بأنه يحيا لنفسه ، أو يعيش لقضاء مآربه الذاتية ، فإذا أفلح الإنسان فى قمع هذه الشهوات ، والتغلب عليها تغلبا تاما حتى لا يكون لها سلطان عليه ، ويختفى من محيط حياته وتفكيره معنى شخصيته الفردية المستقلة التى يعبر عنها بقوله « أنا » فإنه حينئذ — وحينئذ فقط — يصل إلى درجة الحكمة والهدوء النفسانى وهى مرتبة النيرڤانا . »

وليس معنى النيرڤانا هو الفناء التام — كما يظن بعض الناس خطأ — بل معناها إفناء الأغراض والشهوات الذاتية التى تجعل الحياة حقيرة أو مؤلمة أو مزعجة » .

ويقول العلامة نفسه[1] فى التعليق على مبدأ الكارما ما خلاصته » :

« لا نريد أن نبحث هنا بحثا تفصيليا فى مبدأ الكارما فى الديانة البوذية ؛ فإنه مبدأ سائر فى طريق الانقراض . ويكفى أن نقول إن بوذا كان يرى أن ما يفعله الإنسان من خير أو شر فى طور من أطوار حياته يؤثر فى سعادته أو شقائه فى حياته دنيوية أخرى تتصل بحياته الأولى اتصالا وثيقا ، بحيث تعد الحياتان حياة واحدة .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٤ .

« وإننا نعتقد الآن أن الحيـــــاة تسير فى طريقها بحيث تؤثر الحوادث السابقة فى الحوادث اللاحقة ، ولـكننا لا نرى من الضرورى أن نعتقد أن شخصا يموت ثم يعود فيحيا حياة أخرى . »

« وقد كان العقل الهندى تسيطر عليه فـكرة الرجعة الدورية ، بمعنى أن حياة الأشياء والأشخاص والحوادث تذهب ثم تعود مرة أخرى فى هذه الدنيا . ولـكن العلم الحديث قد جعلنا نوقن أن تلك الرجعة المزعومة لا نصيب لها من الصحة ؛ فـكل يوم يأتى يكون أطول أو أقصر مما قبله بمقدار قد يبلغ من القلة درجة لا تـكاد تذكر . وكل جيل من الناس يذهب ولا يأتى بعده جيل يشابهه مشابهة تامة . والتاريخ لا يعيد نفسه إعادة كاملة كما يزعم الزاعمون . والتغير أو التحول يلحق الحياة وأحوالها بلا توقف ، وكل ما يجد من الأشياء والأشخاص هو جديد لا نظير له من قبل ، ولن يكون له نظير من بعد . »

« ولـكن الاختلاف بين مبادئنا الحديثة وبين مبادئ جوتاما لا ينبغى أن تمنعنا أن نحسن تقدير فلسفة جوتاما وحكمته التى لم يسبق لها نظير ، ولا ينبغى أن تحول بيننا وبين الاعتراف باتجاهاته الطيبة ، وعظمة الخطة التى وضعها لتحرير النفس منذ ستة وعشرين قرنا تقريبا » .

الفصل الثانى عشر

البوذية بعد بوذا

١ — عرض عام

(ا) جهود آسوكا فى نشر البوذية :

لقد حظيت البوذية فى انتشارها بما لم تحظ به ديانة أخرى من الديانات التى سبقتها أو عاصرتها أو ظهرت بعدها مباشرة . ولما قضى جوتاما نحبه عقد أتباعه مؤتمرين أحدهما فى « راجاجريها » Rajagriha ، والآخر فى ڤيسالى Vaisali . وقد وقع اختيارهم على هذين المكانين لأنهما كانا أحب الأمكنة إلى بوذا زعيمهم الراحل ؛ فقد كانا المركزين اللذين أذاع منهما تعاليمه فى أثناء حياته التعليمية الطويلة .

وقد كان مصير العقائد البوذية مثل مصير غيرها من العقائد ؛ فقد اختلف أتباع بوذا فى فهمها وتأويلها ، ولم يلبث الخلاف أن اشتد بينهم فانقسموا فريقين فريق الهينايانا Hinayana [١] ، وفريق الماهايانا Mahayana [٢] . وعلى الرغم من اختلاف هذين الفريقين فى مسائل تفصيلية فقد أجمعا على الاعتقاد بأن بوذا آخر — Maitraya — سيظهر فى المستقبل .

وكانت حجتهم فى ذلك ما روى عن زعيمهم بوذا جوتاما ، فقد قال لصديقه آنادا : « لست أنا أول بوذا يظهر فى الأرض ، ولن أكون آخر بوذا فيها ؛ بل سيظهر فى أفق العالم فى الوقت المقدر بوذا آخر ، بوذا مقدس يشع نورا وهاجا ويفيض حكمة ورشادا ، وتتدفق من بين يديه ينابيع البشر والسعادة ، ويظهر أمره

---

(١) أى المركبة الصغرى .　　(٢) أى المركبة الكبرى .

فى جميع أنحاء العالم ، ويكون مرشداً لا نظير له ؛ يرشد الناس إلى الحق ، ويسيطر على جميع المخلوقات ، ويذيع بينكم الحقائق الأزلية الأبدية نفسها التى أذعتها فيكم ، ويثبت أركان قانونه الميمون البداية المبارك النهاية ، النبيل الأغراض فى نصه وروحه ، ويبعث فيكم حيـــاة طيبة كلها كمال وصفاء مثلما أصنع بينكم الآن ، وسوف يربو عدد أتباعه حتى يصل إلى آلاف مؤلفة من الناس ، ويفوق كثيرا عدد أتباعى الذين لم يتجاوزوا عدة مئات » .

وحينئذ قال آنادا : « وهل سيكون فى استطاعتنا أن نعرفــه ؟ فأجاب بوذا إنه سيعرف باسم ميتريا » .

ومن ثم لا يزال العالم البوذى يترقب بفارغ الصبر وعظيم الأمل بوذا المستقبل (ميتريا) أو بوذا الحديث ، الذى سوف يتم بظهوره إنقاذ العالم البائس الذى هو فى نظرهم فى أشد الحاجة إلى منقذ رحيم .

ومع أن البوذية قد انتشرت وظهرت على البراهمية فقد ظلت قابعة فى عقر دارها لم تتجاوز بلاد الهند : مسقط رأسها الذى فيه نشأت ، ومهدها الذى منه درجت.
ولـكن ما أن انتصف القرن الثالث قبل الميلاد حتى دبت فى هذه الديانة روح نشاط ، وهبت عليها رياح قوة وانتعاش ، فنشطت من عقالها ، وسلـكت فى طريق النمو والازدهار مرحلة حاسمة . وذلك حين ظهر آسوكا العظيم ، المنحدر من الأسرة المورية Maurian ، التى كان أمرها قد ظهر على يد خاندراجوبتا Chandragupta ، جد آسوكا ، ذلـكم الأمير الثائر الذى أفلح فى مغامراته ، فالتفت حوله القبائل التى كانت تسكن الجبال فى إقليم البنجاب ، واستولى على عرش ماجادا Magada ، وطرد من الهند ما كان قد بقى فيهـا من جيوش الإسكندر الأكبر المقدونى .

وحوالى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ظهر آسوكا حفيد خاندراجوبتا ، وجلس على عرش جده ، وتولى الملك من بعده (من سنة ٢٦٤ إلى سنة ٢٢٧ ق.م.) ثم دخل فى البوذية وأشرب قلبه حبها وحب تعاليمها ، وكان منها بمثابة القديس بولس أو قسطنطين الأكبر من المسيحية .

كان آسوكا هــــذا من عظماء ملوك الهند ، وقد امتدت إمبراطوريته من أفغانستان إلى مدراس ، وكان الملك المحارب الوحيد الذى يسجل التاريخ أنه هجر مزاولة الحروب بعد أن انتصر على أعدائه ، وكانت له مقدرة عظيمة على إدارة شئون الملك مكنته من أن يحكم إمبراطوريته العظيمة فى هدوء وسلام زهاء أربعين سنة .

ويروى أنه انضم أول الأمر إلى الجماعة البوذية على أنه فرد منها ليس غير ، ولـكنه جدّ وثابر حتى صار بعد عدة سنين عضوا عاملا نشيطا فى تلك الجماعة يحاول جاهدا أن يصل إلى مرتبة النيرڤانا باتباع الطريقة الثمانية المناصر . وقد تأثر فيما بعد بمبادىء بوذا العملية ، وفى مقدمتها الاهتمام الصادق بكسب الرزق فى ظل حياة مستقيمة ، واتجهت همته إلى عمل الخير ، وصدقت عزيمته على الإحسان ، فبذل جهودا متواصلة فى حفر الآبار ليشرب الناس منهـا ، وغرس الأشجار ليستظلوا بظلالها ، وعين موظفين لجمع الصدقات وتنظيم توزيعها على المستحقين ، وأقام كثيرا من المستشفيات والحدائق العامة ، واختص كثيرا من الحقول بزراعة الأعشاب الطبية ، وعنى بتربية النبات ، وساعد الوعاظ على نشر تعاليم بوذا ، وحاول أن يوجههم توجيها صالحا إلى دراسة كتبهم الدينية بمزيد من الاهتمام . ويقال إنه كان يعون نحو ٦٤ ألفاً من رجال الدين البوذيين ، وإنه أقام كثيرا من المعابد البوذية حتى سميت بلاده بلاد الأديرة ، وإنه نصب فى أنحاء بلاده ما يقرب

من ٦٤ ألفاً من الأنصاب والتماثيل التذكارية ليذكر شعبه بمآثره الدينية ، وإنه ترك حوالى ٣٥ تحفة أثرية (فتش) لا تزال باقية حتى الآن .

وكان تحمس آسوكا للبوذية من أسباب ازدهارها وعلو شأنها ؛ فقد بذل كل ما لديه من جهد ونفوذ فى نشر هذه الديانة، لافى إمبراطوريته فحسب بل فيما جاورها وما وراءها أيضاً . وكان من وسائل نشره لدينه أنه أرسل إلى جميع أنحاء العالم مبشرين ينشرون فيها تعاليم أستاذه ، فذهب فريق منهم إلى كشمير ، وآخر إلى سيلان ، وثالث إلى الشام وغيرها من بلاد السلوقيين خلفاء الإسكندر ، ورابع إلى مصر بلاد البطالسة .

وكان من ذهبوا من هؤلاء إلى سيلان هم الذين حملوا معهم إليها فسيل شجرة العرفان الذى تحدثنا عنه من قبل .

وقد ظل آسوكا ثمانية وعشرين عاما يعمل فى جد ونشاط لخير الإنسانية الحقيقى ، ومن ثم بقى اسمه لامعاً تهوى إليـه أفئدة الناس من نهر الفولجا إلى اليابان ، فى حين أن آلافا من أسماء الملوك التى زخرت بها التماثيل قد درست ، ولم يبق لها أثر يذكر .

ويقال إن سخاء آسوكا ، وغلوه فى الحرص على انتشار البوذية كان سبباً فى أن يدخل فى هذا الدين أخلاط من الناس أعوزهم الإخلاص ، وانغمسوا فى خضم المآرب الذاتية والمنافع الشخصية ، ومع ذلك فليس هناك أدنى شك فى أن الفضل يرجع إليه بوجه خاص فى سرعة انتشار هذا الدين فى جميع أنحاء آسيا ؛ فقد انتشر فى أواسط آسيا بطريق أفغانستان والتركستان ، ومن ثم وصل إلى الصين ، ولم تأت سنة ٢٠٠ ق . م إلا والمؤلفـات البوذية منتشرة فى طول آسيا وعرضها .

(ب) البوذية والبراهمية :

ظهرت البوذية وقوى نفوذها فى الهند ردحا من الزمان ، وكانت البراهمية تسير معها جنباً إلى جنب على الرغم من اعتقاد البراهمة بوجود عدد من الآلهة • وقد ظلتا كذلك أكثر من ألف سنة أى من سنة ٢٥٠ ق م إلى سنة ٨٠٠ م ، وتعتبر الهندوكية الحديثة وليدة هاتين الديانتين • وفى القرنين التاليين انتشرت البوذية فى جهات الهند الشمالية ، وربما تكون الإمارات الإغريقية التى كانت قائمة هنالك حينئذ قد ساعدتها على الانتشار .

بعد ذلك أخذ أمر البراهمية يعلو ، ولم يزل يعلو حتى تمكنت من طرد البوذية من الهند مسقط رأسها .

ولا يتسع المقام لتتبع الصراع بين هاتين الديانتين ، ويكفى أن نقول إنه لم يأت القرن الحادى عشر بعد الميلاد إلا وقد زال نفوذ التعاليم البوذية من الهند ، ولم يبق لها هنالك أثر يذكر إلا فى بعض الجهات •

على أن بعض تلك التعاليم قد انتقلت إلى البراهمية ، وبخاصة مبدأ التسامح والإحسان إلى الفقراء ، ومن ثم حدث تجديد فى البراهمية ، ونشأ ما يسمى بالبراهمية الثانية .

بيد أن أمر البوذية لم ينته بتقلص نفوذها فى الهند ، بل إنها بقيت حية قوية نشيطة ، وانتشرت فى صور مستحدثة فى البلاد المجاورة للهند ، وهى: التبت ، والصين ، واليابان ، وبورما ، وسيام . وظلت منتشرة ناهضة فى تلك البلاد حتى جاء الإسلام فقاومها وأضعف من شأنها ، ولكنها بقيت حتى الآن يدين بها ملايين ممن ينتمون إلى الجنس المغولى :

يقول العلامة ويلز فى بيان العلاقة بين الديانات الكبرى[1] :

« مما يدعو إلى العجب أن نجد أن الديانتين الآريتى النشأة (أى البوذية والبراهمية) تكادان تكونان الآن مقصورتين على الشعوب المغولية ، فى حين أن معظم الآريين أنفسهم قد هجروا هاتين الديانتين ، واعتنقوا المسيحية أو الإسلام ، وهما ديانتان ساميتان فى أساسهما . على أنه يبدو أن البوذية والمسيحية قد انبعتا فى شعائرها وعقائدها تقاليد يظهر لنا أنها مستمدة — بطريق الثقافة الإغريقية — من تقاليد مصر : بلاد الهيا كل والمعابد ، وموطن نظام الكهنوت ، ومن عقلية الشعوب الحامية سمر البشرة » .

(ج) البوذية والتاوية والكنفشيوسية :

لما دخلت البوذية الصين وجدت فيها ديانتين تشبهانها فى الدعوة إلى التمسك بمكارم الأخلاق : إحداهما الديانة التاوية Taoism أى ديانة الطريق المستقيم التى أسسها لاوتسى Lao Tse معاصر جوتاما ، والأخرى الكنفشيوسية التى أسسها كنفشيوس فى القرن نفسه الذى ظهرت فيه البوذية والتاوية ، وهو القرن السادس قبل الميلاد . ويتحدث الصينيون عن هذه الديانات الثلاث فيطلقون عليها اسم « التعاليم الثلاثة » .

ومع أنه يبدو أن بين زعماء هذه الديانات بعض أوجه من التشابه ؛ فإن جوتاما يعد أعظمهم قدرا ، وأعمقهم تفكيرا ، وأبعدهم نظرا ، وكذلك يقال فى المبادىء التى أذعها بين الناس ، والعقائد التى غرسها فى نفوسهم . ولا تزال المبادىء والعقائد البوذية فى صورها الأولى تسيطر على أفكار معظم من يسكنون الجزء الجنوبى الشرقى عن آسيا .

---

(١) راجع ص ٢٧٣ من الجزء الأول من كتابه السابق ذكره .

وتشترك هذه الديانات الثلاث فى أن كلا منها أولا وقبل كل شىء ديانة أخلاقية عملية، طابعها البارز هو اللين والرفق والتسامح ، وليس الحديث فى وجود الآلهة ، وتقديسهم ، وتقديم القرابين لهم أو فى عدم وجودهم موضع اهتمام كبير فى أية من تلك الديانات .

وقد كان هذا الاتجاه مخالفا لاتجاه اليهودية التى كان القول بوجود إله واحد هو العقيدة الأساسية فيها ، ويصف اليهود هذا الإله الواحد بأنه غيور على بنى إسرائيل ، وأنه لايقبل أن يكون معه إله آخر ، وأنه لايسمح لعباده بالاعتقاد فى تأثير السحر والكهانة ، ولا بممارسة التقاليد القديمة التى شاعت بين الشعوب الأخرى ؛ كتقديم القرابين للملوك المتألهين[١] .

وكان تمسك اليهود بعقائدهم، وعدم السماح لأحد بأن يعبث بها أو يغير فيها أو يبدل ، من أسباب بقاء اليهودية واضحة ثابتة لم يعبث بها العابثون ، فى حين أن الحكماء الثلاثة بوذا ولا وتس وكنفشيوس آثروا التسامح ، ولم يعترفوا بأهمية البحث فى الإلهيات ، ونادوا بعدم التعرض لوجود الآلهة بإثبات أو نفى . ومن ثم ندرك ما طرأ على الديانات الثلاث الكبرى من تحريف وتبديل ، وفوضى فى التأويل ، ومسخ فى العقائد ، وتعقيد فى ممارسة الشعائر الدينية .

(د) البوذية الثانية :

لقد كانت البوذية الأولى تختلف عن الديانات التى سبقتها أو عاصرتها

---

(١) راجع الوصايا العشر فى الفصل العشرين (١ — ١٧) من سفر الخروج ثانى أسفار التوراة .

فى أمور جوهرية ، فقد كانت فى أساسها ديانة عملية تدعو إلى ضبط النفس ، وقمع الشهوات ، والتسامح ، والتمسك بالآراء الصحيحة . ولم تكن ديانة عبادات ظاهرية ، ولا تقديم قرابين ، ولم ينشىء بوذا معابد ولا هياكل ، ولم يدع إلى تفضيل فريق من الناس على غيرهم ، ومن ثم لم ينشىء طائفة دينية خاصة من قساوسة ورهبان ينظر إليهم دون غيرهم نظرة تقديس — كما فعل البراهمة .

ولم تعن البوذية الأولى عناية بارزة بالبحوث اللاهوتية ، بل إنها جارت البراهمية فى ذلك مجرد مجاراة ، ولم تحاول أن تثبت وجود الآلهة أو تنكره .

ولقد أسىء فهم هذا الدين الجديد منذ البداية ، وربما كان السبب فى ذلك ما انطوى عليه ذلك الدين من عقائد وتعاليم يكتنفها الغموض أو يستعصى على العقل البشرى إدراكها ، وفى مقدمة هذه العقائد النيرقانا .

وفى مقدمة تلك التعاليم : الدعوة إلى الغض من قيمة النفس ، والعمل على إذلالها ؛ فقد فهم أتباع بوذا من بعده أن الغرض من إذلال النفس هو البعد عن الحياة الدنيوية النشيطة ، وذلك حين خيل إليهم أن نبذ الحياة النشيطة أسهل من نبذ النفس أو إذلالها والتخلص من غوايتها .

وهذا منهج يخالف منهج بوذا وأتباعه الأولين ، الذين كانوا يبذلون جهودا بارزة فى التفكير فى شئون الحياة ، وإرشاد الناس إلى الطريق السوى فى تناول الأمور الدنيوية .

وقد غلا المتأخرون من أتباع بوذا فى أتباع تلك العقيدة الفاسدة : عقيدة نبذ

الحياة النشيطة ، فجنحوا إلى العزلة والرهبنة ، والمعيشة الساذجة البعيدة عن صخب الحياة العملية ومتاعبها .

وإننا إذا استثنينا مبدأ « التمسك بالآراء الصحيحة » — الذى كان جوتاما يلح فى مطالبة تلاميذه باتباعه — لا نجد بين البوذيين بعد وفاة زعيمهم اهتماما جديا بالتمسك بمبادئه الأخرى ، بل إن ذلك المبدأ نفسه ، وهو : مبدأ التمسك بالآراء الصحيحة لم يبق هو الآخر موضع اهتمام كبير لدى المتـــأخرين من البوذيين .

وليس فى البوذية ولا فى غيرها من الديانتين الآريتين الأخريين تعاليم فعالة تنهى عن ممارسة السحر والـكهانة، وغيرهما من التقاليد البالية التى تقوم على عقائد خرافية فاسدة ؛ لذا كانت تلك الديانات عرضة لسريان العدوى إليها من الديانات القديمة ، التى حاولت الديانات الآرية أن تحل محلها ، فأصيبت بأمراضها ، وانتقلت إليها جميع عقائدها الفاسدة ، وشاع بين أتباعها الولع بإقامـــة الأصنام، وبناء المعابد الضخمة، والهياكل الفخمة، وتقديم الضحايا والقرابين ، وذبحها على مذابح تلك الهياكل .

يقول العلامة ولز [1] :

إن التبت الآن مملـكة بوذية ، ولو قدر لبوذا أن يبعث ، ويعود إلى الحياة على سطح الأرض ، ويطوف بأنحـاء تلك المملـكة من أقصاها إلى أقصاها ، محاولا أن يجد أى أثر من آثار تعاليمه التى كان قد أذاعها فى الناس — إنه لو فعل ذلك لـكانت محاولاتها كلها عبثا ، ولأدركه العجب الشديد حين يرى الناس وقد ارتدوا عن دينه ، ورجعوا إلى التقاليد البالية ، فاتخذوا من ملـكهم إلها يعبد ، ومن اللاما (الزعيم الدينى) شخصية حية تمثل بوذا » .

(١) ص ٢٧١ من كتابه نفسه .

« إن بوذا كان يسكن الأكواخ، ولم يؤسس جماعة دينية من قساوسة ورهبان ، فما أشد دهشه لو بعث ورأى فى مدينة لهاسا Lhassa [(١)] هيكلا ضخما يموج بالقساوسة والرهبان وغيرهم من رجال الدين من كل صنف ، وما أشد ما يحزن حين يرى فوق مذبح هذا الهيكل صنما ضخما من الذهب كتب عليه اسم بوذ جوتاما » :

« نعم إن بوذا لو بعث وعاد إلى الحياة على الأرض لبهت إذا يرى من يدعون التدين بدينه قد مسخوا هذا الدين ، واختلفوا فيه مالم يكن منه فى شىء ، وأدخلوا فيه بدعا وخرافات ما كانت لتخطر على بال جوتاما » .

حقا لقد تغيرت البوذية بعد بوذا وتبدلت ، واتخذت فى كل بيئة من البيئات التى انتشرت فيها طابعا خاصا يخالف غيره مخالفة جوهرية ، حتى إنه ليخيل للباحث أن المذاهب التى ابتدعت فى تلك البيئات ديانات جديدة ضعيفة الصلة بالديانة القديمة التى نشأت عنها ، وإن هذه المذاهب الفرعية ليختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا حتى إننا لنجد فى كل من الهند والصين واليابان والتبت وبورما وسيام مذهبا بوذيا يخالف غيره من المذاهب الشائعة فى البلاد الأخرى ، كما يخالف المذهب الأصلى الذى تفرع منه .

وقد اتسعت شقة الخلاف بين البوذين حتى وصل فى بعض الحالات إلى درجة التناقض ؛ فقد ذكر « ماهان » أن فريقا من البوذيين روحانيون أو مثاليون أفلاطونيو النزعة ، وفريقا آخر ماديون واقعيون أرسطوطاليو الاتجاه [(٢)] .

---

(١) عاصمة التبت .

(٢) راجع A Critical History of PhilosoPhy Voi. 1. p. 115-117.

وفى الموضوع نفسه يقول العلامة محمد فاضل : —

« وبتوزيع هذا الدين (البوذى) فى أقطار واسعة وعصبيات كبيرة تضاربت فيه الأفكار ، وكثر القياس والتأويل بين الآخذين به بقدر ما وصلت إليه عقول رءوسهم ، وانقسم أخيرا إلى ثمانية مذاهب فيما يعلم .

وقد تفرع من كل مذهب فروع شتى يطول بنا الأمر لو تتبعناها وسردناها[1] » .

(١) كتاب : « الجواب فى صدر البهاء والباب » ص : ١٠٣ .



صورة لبوذا على عرش الألوهية . عملت في أحد هيا كل التبت في القرن الثامن عشر بعد الميلاد عن كتاب خلاصة التاريخ تأليف ه. ج. ولز : ١ — ٢٧٢ .

الفصل الثالث عشر

البوذية بعـــد بوذا

٢ — الفرق البوذية

أشرنا فيما مضى إشارة عابرة إلى أن البوذية قد تطورت بعد بوذا تطورا جوهريا باعد بينها وبين البوذية القديمة الأولى التى أذاعها بوذا ، لدرجة أنه لوقدر له أن يبعث لاستنكر المذاهب المستحدثة التى ابتكرها أتباعه من بعده .

وقد اشتد الخلاف بين المحافظين أتباع المذهب القديم ، والمجددين أتباع المذاهب الحديثة ، وكان النصر فى النهاية لفريق المجددين الذين أطلقوا على مذهبهم اسم « الماهايانا » أى المذهب الأسمى أو المركبة الكبرى ، وأطلقوا على المذهب القديم اسم « الهينايانا » أى المذهب الأصغر ، أو المركبة الصغرى .

ومن المرجح أن هذا التطور يرجع إلى أن بعض مذاهب دينية وفلسفية حديثة قد ظهرت فى الهند ، وشق كل منها لنفسه طريقا خاصا ، متأثراً بالبوذية القديمة الأولى وبما سبقها من المذاهب الدينية .

وكان فى مقدمة هذه المذاهب : —

(ا) مذهب الحكيم كاپيلا (Capila) ، الذى أشرنا إليه من قبل ،وقلنا إن مدينة كاپيلا قاستو — مسقط رأس بوذا — سميت باسمه . ويظن أنه عاش فى القرن السادس قبل الميلاد ، أى فى القرن نفسه الذى ظهر فيه بوذا .

وقد وضع هذا الحكيم منهبا فلسفيا أطلق عليـــه اسم « سانك »

أو « سانكهيا » أى مذهب التعدد ؛ لأنه كان يقول بتعدد النفوس والأرواح ، وينكر وجود إله واحد يتصرف وحده فى الكون .

(ب) مذهب باتانجالى (Patanjali) الذى ظهر فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأسس المدرسة اليوجية الحديثة (الوحدة = Yoga) ، التى كانت تؤمن بوجود الكائنات الروحانية ، وتنكر الوجود الحقيقى الواقعى للماديات .

ويروى البيرونى أن هذه المدرسة كانت تدين بوحدانية الله ، وتدعو إلى عمل الخير والإحسان لكافة الخلق ، والسعى فى إخضاع الشهوات البدنية للقوة النفسية .

(ج) مذهب الحكيم كانادا الذى ظهر أمره فى القرن الثانى الميلادى ، ويسمى مذهب « الفيسيشيكا » (الفلسفة التحقيقية = Vaices'hika) ، وهو مذهب منطقى مادى يشبه المذهب الذرى الذى أذاعه دعقريط اليونانى ، ذلك المذهب الذى يقوم على القول بأن الكون كله يتكون من ذرات مختلفة الأنواع ، ينضم بعضها إلى بعض بطرق مختلفة فتنشأ الكائنات .

(د) مذهب جوتم أو جوتاما الثانى الذى ظهر فى القرن الثانى أو الثالث بعد الميلاد . ويسمى مذهب « نيايا » (المنطق = Nyayá) ، ويعزز مذهب كانادا فيضيف إليه أن الإحساس هو أساس الحياة العقلية ، أو أن الحواس هى أبواب المعرفة — كما يقوم المحدثون من علماء النفس ؛ ذلك أن الإنسان — فى رأى أصحاب هذا المذهب — يتكون من الجسم ، والحواس ، والعقل (ماناس) ، والروح (أتمان) ؛ فالحواس تنقل الإحساسات إلى العقل فيدركها ، ثم ينقلها العقل إلى الروح فتؤولها ، وتتصرف فيها .

لقد ظهرت هذه المذاهب وغيرها فى الهند ، وشاع أمرها بين البوذيين ، فكان من الطبيعى أن يتأثروا بها كثيراً أو قليلا ، وأن يؤدى ذلك إلى ظهور مذاهب بوذية حديثة تخالف البوذية القديمة مخالفة تقل أو تعظم تبعا لمقدار تأثرها بالآراء والمذاهب التى ذكرنا بعضها .

ونستطيع أن نلخص أهم مواضع الاختلاف بين البوذية الأولى والمذاهب البوذية الحديثة فنقول :

١ — إن بعض الفرق البوذية الحديثة يرون أن الواجب على البوذى المتدين حقا لا يقف عند التشبه بالزعيم الأكبر بوذا ، والاكتفاء باتباع الأخلاق الفاضلة ، والتمسك بالآداب الدينية — كما يرى القدماء الذين قصروا غرضهم من ذلك التشبه على الوصول إلى مرتبة النيرڤانا ، بل إن هذا الواجب يجب أن يشمل ما هو أكثر من التشبه ، وهو أن يعمل كل فرد على أن يصل إلى مرتبة البوذية نفسها . وقالوا إن هذا ليس بمستحيل ، بل إنه ممكن داخل فى حدود الطاقة البشرية ، لا يتطلب إلا السعى فى سبيل الوصول إلى درجة الكمال فى الحكمة والمعرفة والرياضة الروحانية ، وضبط النفس ، وقوة الإرادة ، والإحسان إلى الناس ، والسلوك الطيب .

٢ — إن بعض البوذيين المجددين تأثروا — على ما يبدو — بمذهب كاپيلا ، فقالوا بتعدد القوى الروحانية ، وعدم وجود قوة روحانية واحدة تسيطر على الكون وحدها ، أو تشمل فى كيانها جميع الكائنات . وهذا مخالف لرأى البوذيين الأولين الذين كانوا يقولون « بوحدة الوجود » .

٣ — إن إحدى الفرق البوذية الحديثة قد تأثرت باليوجية ، فقالت بأنه لا يوصف بالوجود الحقيقى إلا عالم الروحانيات ، أما عالم الماديات فهو رمز لا غير

(١) الروحانيات أو المعنويات الذى يسميه أفلاطون « عالم المثل » ولذا يسمى مذهب هذه الفرقة « المذهب الرمزى » ، الذى كان للزعيم « أشانجا » بوجه خاص الفضل فى إذاعته فى القرن الرابع بعد الميلاد .

٤ — إن أشياع بعض المذاهب البوذية الحديثة يرون أن بوذا ليس إنسانا محضا ، بل إن روح الإله المنقذ الحقيقى قد حلت به ، كما حلت بثلاثة من قبله . وهذه العقيدة تشبه عقيدة الحلول التى يعتنقها بعض المسيحيين فى السيد المسيح ، فيقولون إن شخصيته ثنائية : لاهوتية ناسونية ، وإن الشخصية اللاهوتية حلت بالشخصية الناسونية ، كما تشبه عقيدة غلاة الشيعة الذين يسمون « العلى إلهيين » لأنهم يرون أن روح الله قد حلت بعلىّ بن أبى طالب — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ولعل هذه العقيدة هى التى حملت بعض البوذيين الحديثين على صنع التماثيل لبوذا ، وجعلها بمثابة أصنام تقدم لها القرابين ، وتقام أمامها مراسيم العبادة والتقديس — كما قلنا من قبل .

٥ — إن بعض الفرق البوذية الحديثة قد سلكت مسلكا ماديا بحتا ، متأثرة فى ذلك — كما يبدو — بمذهب « كانادا » ، فقالت بأنه ليس فى الوجود إلا الكائنات المادية المجردة من الروحانيات . وهذا مذهب مضاد للمذهب الروحانى الذى أذاعه « أشانجا » واعتنقته بعض الفرق البوذية الأخرى .

من هذا كله ترى مدى تأثر البوذيين المحدثين بالمذاهب الفلسفية الهندية الحديثة ، وانقسامهم إلى فرق اختلف بعضها عن بعض اختلافا وصل إلى درجة التناقض ؛ كما هى الحال بين الروحانيين الذين يرون أن العالم الروحانى وحده هو الذى

يوصف بأنه موجود وجوداً واقعيا حقيقيا ، والماديين الذين يرون أنه ليس في الوجود إلا الكائنات المادية المكونة من الذرات .

ولم يقف الأمر عندهذا الحد بل إن الفرق الحديثة القائلة بوجودالله قدتعددت، ثم انقسم كل منها إلى فرق فرعية متعددة . وفى ذلك يقول العلامة محمد فاضل فى كتابه : « الحراب فى صدر البهاء والباب » .

« وبتوزيع هذا الدين (دين بوذا) فى أقطار واسعة ، وعصبيات كبيرة تضاربت فيه الأفكار ، وكثر القياس والتأويل بين الآخذين به بقدر ماوصلت إليه عقول وءوسهم وساسة أفكارهم ، حتى تركب من الحكمة والخيالات الوهمية، وانقسم أخيراً إلى ثمانية مذاهب فيما يعلم . وقد تفرع من كل مذهب فروع شتى يطول بنا الأمر لو تتبعناها وسردناها ، والإشارة إلى الأصول توصل إلى معرفة الفروع بوجه التقريب[1] » .

واستكمالا للبحث نوضح آراء كل فرقة من هذه الفرق الأصلية على الوجه الآتى : —

١ — الفرقة الأولى :

تقول : إن الله واحد فى ذاته ، والخلق صور تدل عليه ، وقد أوجد بادىء بدء عدداً محدودا من الأرواح ، وترك الإنشاء والإبداع ، مكتفيا بما وضعه فى العالم من قوانين وقوى تسير سيرها الطبيعى بلا نهاية .

وكانت تلك الأرواح قبل هبوطها إلى العالم السفلى تقيم فى العالم العلوى حيث

---

(١) راجع الكتاب المذكور ص ١٠٣ — ١٠٧ مطبعة دار التقدم سنة ١٣٢٩ هـ سنة ١٩١١ م .

اكتسبت العلم بالضروريات فلم تعُد في حاجة إلى مرشد أوهاد .

وقد أنزلها الله تعالى من العالم العلوى ، وأرسلها فى نوعى الحيوان والإنسان دون غيرها من الكائنات ، تتناسخ فيهما فقط ، وتنتقل من نوع إلى آخر ، مقيدة فى ذلك بمبدأ الكارما ؛ أى مسلكها فى حياتها الأولى فى جسد أى فرد من أفراد النوعين .

وقد استدلوا على التناسخ بما ذكرناه من قبل[1] .

٢ — الفرقة الثانية :

تقول هذه الفرقة بوحدة الإله ، وجواز تصوره فى صورة حسناء يخترعها من غير حلوله فيها أو فى غيرها من الهيا كل ؛ وذلك ليقرب للعقول البشرية أنه بالغ من الحسن والمهابة مبلغ هذه الصورة — وإن كان فى ذاته بعيدا عن الإدراك ، لخروجه عن سلسلة الممكنات ، فإدراك كنهه ليس فى طوق العقل البشرى .

وتوافق هذه الفرقة الفرقة الأولى فى القول بأن الله تعالى ترك الإنشاء والإبداع مكتفيا بما أوجد فى الكائنات من قوانين وقوى ، وفى القول بمبدأ التناسخ ، وإن كانت تخالفها فى ذلك فتقول باختصاص التناسخ ؛ أى أن تناسخ الأرواح الإنسانية مقصور على النوع الإنسانى فلا تنتقل إلى غيره من أنواع الحيوان ، والأرواح الحيوانية مقصورة أيضا على أنواع الحيوان فلا تتعداها إلى النوع الإنسانى .

وتقول هذه الطائفة إن الله لا يرسل رسلا إلى الناس ؛ مكتفيا بأن الأرواح المرسلة فى الإنسان تدرك بطبيعتها الملائم وغير الملائم ، وحين تتصل بما يلائمها من

---

(١) راجع ص ٨٠ من هذا الكتاب .

الأفراد تجلو مرآة ذاتها فتعود إليها علومها الفطرية ، وترشد إلى الخير ، وتنهى عن الشر .

٣ — الفرقة الثالثة :

تقول هذه الفرقة : إن الله واحد فى ذاته ،منزه عن جميع صفات المادة كالصورة والهيولى ، لا يحل بغيره ، وإنه تعالى خلق الأرواح على صور دبرها واخترعها ، وجعلها متناسخة بطريقة لا يستطيع العقل البشرى أن يصل إلى معرفتها ، وإنه تعالى لا يرسل رسلا ولا معلمين ، اكتفاء بما ركب فى المخلوقات من العلم بما هو نافع وبما هو ضار .

٤ — الفرقة الرابعة :

تتفق هذه الفرقة والفرقة الثالثة فى القول بوحدانية الله وتنزيهه عن الصورة والمادة والحلول ، وتقر مبدأ التناسخ ، ولكنها تضيق دائرته ، فتقول إن الروح لا تنتقل إلا إلى نظير من فَنِّىَ ؛ فروح العالم تنتقل إلى عالم آخر ، وروح الملك تحل فى ملك غيره ، وروح الصانع تنتقل إلى صانع آخر — وهكذا .

وترى هذه الفرقة أن الله تعالى يُفرِغ الكمالات الإنسانية فى كل زمن على إنسان يتجرد لعبادته ، ويبتعد عن إرضاء الشهوات الحيوانية . وهذا الإنسان المختار يحل محل الإله فى إظهار الرضا عن بعض الناس أو الغضب عليهم تبعا لما يأتونه من الأعمال ، وفى إحلال الطيبات ، وتحريم الخبائث ، وإثبات الأحكام التى تتطلبها مقتضيات الزمن ، ونسخ مالا يناسب الظروف الاجتماعية من القوانين .

ولذا ينصبون عابدا فى كل زمن نائبا فى الأرض عن الإله ، ويعملون بكل

مما يسنه من الشرائع ، سواء أجرى على سنة من سبقه أم خالفه . وكلما مات عابد أحلوا محله من هو أهل لأن يقوم مقامه[١] .

٥ — الفرقة الخامسة :

توافق هذه الفرقة الفرقة الأولى فى أصل العقيدة ، وتخالفها فى القول بتحديد عدد الأرواح التى يبرئها الإله ، فتقول إن باب الإنشاء والخلق لم يقفل على الله ؛ فهو يزيد فى خلقه ما يشاء . ومع هذه الزيادة تتناسخ الأرواح مقصورة على نوعى الإنسان والحيوان ، قديمة كانت الأرواح أو مستحدثة .

٦ — الفرقة السادسة :

توافق هذه الفرقة الفرقة الثالثة فى أصول عقائدها ، ولكنها تقول برجعة الأجسام بطريق التوالد إن اتفقت الأدوار الفلكية ؛ فمن صادفه هذا الاتفاق عاد إلى الوجود بصورته التى كان عليها فى الدور الأول . وهذه عقيدة يكتنفها شىء من الغموض — كما ترى .

٧ — الفرقة السابعة :

توافق هذه الفرقة الفرقة الثانية فى أصول العقيدة ، وفى مبدأ التناسخ بالصورة نفسها ، وتخالفها فى اختراع الإله صورة حسناء يقرب بها إلى العقول أنه بالغ من الحسن مبلغها . وتقول بمبدأ الحلول ، بمعنى أن الإله — عز وجل — يحل فى أية صورة يختارها من صور أفراد الإنسان حلول تطهير وتكميل ، لا حلول استقرار .

---

(١) لعل المراد بذلك العابد هو « اللاما » رئيس الكهنوت فى بلاد التبت — كما سترى بعد.

٨ — الفرقة الثامنة :

توافق هذه الفرقة الفرقة الرابعة فى عقائدها ، وتخالفها فى إثبات الأحكام ونسخها ؛ فلا تقول بأن العابد النائب عن الإله له الحق فيهما بدون قيد ولا شرط ، بل تقول إنه ليس له الحق فى نسخ الأحكام التى لم يمض عليها مائة سنة .

هذا وإن من ينظر فى عقائد هذه الفرق يجد أنها لم تستبق من العقائد البوذية الأولى إلا القول بوجود الإله ووحدانيته[١] ، والاعتقاد فى مبدأ تناسخ الأرواح ، ويرى أنها قد أدخلت فى البوذية ما لم يكن منها كالقول بالحلول والتصور ، واتخاذ العابد نائبا عن الإله ، وعودة الأجسام عند اتفاق الأدوار الفلكية . وإنكار البعث جسميا وروحيا ، والحكم بأن السعادة والشقاء فى هذه الدار لا غير ، وإنكار إرسال الرسل والمعلمين ، وإنكار نزول الكتب السماوية على أى فرد من أفراد الإنسان .

وقد غلا بعض البوذيين فى تقديس الملوك والكهنة والعلماء ، وبناء المعابد والهيا كل ؛ فهم ينزهون ملوكهم عن النقائص ، ويقدسون علماءهم ، ويزينون بصورهم معابدهم وهيا كلهم ، ويخرون لها سجدا على وجوههم ، فهم بذلك وثنيون عبدة أصنام . وإن ذلك ليتجلى بأجلى مظاهره فى بلاد التبت . كما سترى فيما بعد .

---

(١) هكذا يقول صاحب كتاب الحراب ، ولم أجد فيما بين يدى من المراجع الأخرى نصاً صريحاً يدل على أن البوذيين الأولين كانوا يؤمنون إيماناً صريحاً بوجود الله ووحدانيته . ويكاد يكون من المجمع عليه أن بوذا وأتباعه الأولين لم يعرضوا لعقيدة الألوهية بإثبات أو نفى ، وأن اهتمامهم كان موجهاً إلى بث التعاليم الخلقية .

الفصل الرابع عشر

البوذية فى العصر الحديث

الآن وقد انتهينا من الكلام على المبادىء والفرق البوذية بوجه عام نريد أن نقدم للقارى فى هذا الفصل بياناً موجزاً لحالة البوذية فى العصر الحديث ، على أن يشمل هذا البيان تطور البوذية ، وعصور انتقالها من الهند إلى غيرها من البلاد المجاورة لها ، ونشأة فرقها المختلفة فى تلك البلاد على الترتيب الآتى :

١ — فى الهند وبورما

تحتل البوذية فى الهند فى العصر الحديث المرتبة الثالثة بين الأديان الهندية الكبرى وهى — على الترتيب — الهندوكية ، والإسلام ،والبوذية ،والسيخية ، والمسيحية ، والجينية .

وفى مستهل القرن الحالى (القرن العشرين) كان عدد البوذيين فى الهند وبورما معاً حوالى تسعة ملايين ونصف مليون نسمة ، كانوا — ما عدا حوالى ثلثمائة ألف — من سكان بورما وحدها ، التى يقدر عدد البوذيين فيها بنحو ٨٨٫٦٪ من سكانها ؛ ولذا يمكن أن يقال إن بورما بلاد بوذية .

أما الهند فقد تضاءل بها عدد البوذيين حتى إنه لم يبق فيها منهم إلا هذا العدد القليل ، وهو حوالى ثلثمائة ألف يقيمون على الحدود بين الهند ونيبال والتبت ، أو بين إقليم البنجال وبورما .

ومعظم البوذيين فى الهند وبورما من أتباع مذهب الهينايانا ؛ أى المركبة

الصغرى ؛ كما يسميهم المعارضون لهم ؛ أى الذين أطلقوا على مذهبهم اسم الماهايانا ، أى المركبة الكبرى .

ويعد مذهب الهينايانا أقرب المذهبين إلى البوذية الأولى التى أذاعها بوذا الأكبر ، وانتشر أتباعه فى نيبال وما جاورها ثم فى بورما .

وفى مقدمة المبادئ الدينية الشائعة بين البورميين أنه يجب على كل فرد أن يعمل فى الحياة الدنيا الأعمال الطيبة التى تهيئه لأن تحل فيه روح الإله فى مستقبل حياته .

وتشمل الأعمال الطيبة : التصدق على الفقراء ، وتقديم الأرز للقسس والرهبان ، والتعاون على بناء الأديرة ، وإقامة الجسور ، وإنشاء الربط والاستراحات للمسافرين وأبناء السبيل .

ولا يقوم البورمى بهذه الأعمال حباً فى أحد أو رغبة فى إرضاء إنسان ، وإنما يقوم بها لتكون ذخيرة له تنفعه فى مستقبل حياته ، متأثر فى ذلك بمبدأ الكارما الذى سبق شرحه .

٢ — فى سيلان

كانت سيلان من أسبق الممالك الشرقية إلى اعتناق البوذية بعد أن تقلص ظلها فى الهند ؛ فقد أجمع الرواة على أن آسوكا إمبراطور الهند الكبير (٢٦٤ — ٢٢٧ ق . م .) أرسل بعثات إلى كثير من أنحاء العالم لنشر البوذية بها ، وأنه أرسل مع بعثة سيلان فسيلة من شجرة العرفان التى كان بوذا يجلس تحتها حينما هبطت عليه المعارف اللدنية ، وقد بينا فيما مضى ما كان لهذا العاهل العظيم من جهود جبارة فى حماية البوذية ونشرها ؛ حتى إنه كان منها بمثابة

القديس بولس أو قسطنطين الأكبر من المسيحية[1] .

ويروى أن ماهندا (Mahanda) بن آسوكا كان هو الذى أدخل البوذية فى سيلان فى القرن الثالث قبل الميلاد . وقد تقبلها السكان بقبول حسن فلم تلبث أن انتشرت ، وكثر عدد أتباعها حتى بلغوا فى مستهل القرن العشرين ما يقرب من ثلثي السكان الذين بلغ عددهم فى سنة ١٩٠١ م ما يزيد قليلا على ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة ؛ ومن ثم يمكن أن توصف سيلان أيضا بأنها مملكة بوذية وإن كان بها مسلمون ومسيحيون وهندوكيون .

وقد وصلت البوذية إلى سيلان فى عهدها الأول حين كانت نقية ساذجة خالية من الأساطير والعقائد المعقدة التى تسربت إليها فيما بعد ، وقد بقيت فى تلك البلاد على هذه الصورة .

ولا تزال هنالك آثار منتشرة فى جميع أنحاء البلاد تدل على الجهود العظيمة التى بذلها شعب سيلان وملوكها البوذيون المتعقبون فى إقامة الهياكل الضخمة ، وبخاصة فى مقاطعة كانديان Kandyan حيث بنيت هياكل فخمة أوقفت لصيانتها ورعاية شئونها مساحات فسيحة من الأراضى الخصبة .

٣ — فى الصين :

ليس لدينا من المعلومات الموثوق بها ما يحدد بالضبط تاريخ دخول البوذية بلاد الصين . ومما يروى فى ذلك أن الإمبراطور منج تى Ming Ti (٥٨ — ٨٦م) رأى رؤيا تمثل له فيها شبح رجل ذهبي اللون ، وقد قص الإمبراطور رؤياه على أخيه

---

(١) راجع ص ٥٣ ، وص ١٠٣ — ١٠٦ من هذا الكتاب .

فسّرها بأن هذا الرجل هو بوذا ساكيامونى ، الذى كانت له فى ذلك الوقت شهرة عظيمة ملأت أرجاء البلاد الواقعة غربى الصين .

ومن المؤكد أن بعثة من ثمانية عشر رجلا أرسلت سنة ٦٥ م من الصين إلى خوتان بالهند للبحث فى أمر البوذية ، وأنها قد عادت سنة ٦٧ م ومعها بعض الكتب الهندية البوذية ، وقسيس هندى بوذى ، وأن قسيساً آخر وفد على الصين بعد ذلك بقليل ، وأن الصينيين بنوا لهذين القسيسين بمدينة لويانج Lo yang — التى كانت عاصمة الصين فى ذلك الوقت — معبداً ليقيما فيه ، ويترجما إلى اللغة الصينية بعض الكتب المقدسة البوذية ، وأن سيل القسس الأجانب الذين كانوا يفدون على الصين فيما بعد لترجمة الكتب المقدسة البوذية بالصين لم ينقطع زهاء قرنين ونصف قرن .

بعد ذلك أخذت البوذية تنتشر فى الصين . ومنذ القرن الرابع الميلادى أخذ الصينيون أنفسهم يحجون بلاد الهند ليطلعوا على الأماكن البوذية المقدسة ، ويزوروا المقامات التى كانت مصادر إلهام لزعيمهم الدينى بوذا .

ولقد لقيت البوذية فى أول عهدها بالصين معارضة قوية من أتباع الديانة التاوية ، ولكن لم يبدأ القرن الحادى عشر الميلادى إلا وهى حرة طليقة فى مأمن من المعارضة والمطاردة . ولم تزل تنتشر ويعلو شأنها حتى شملت الصين كلها من أقصاها إلى أقصاها .

وقد نمت البوذية فى الصين نمواً مستقلا ، وصبغت بصبغة محلية ، وتطورت حتى بعدت عن البوذية الأصلية بعض البعد ، وذلك بإضافة ما أضيف إليها ، وحذف ما حذف من العقائد والطقوس الدينية .

ولبيان ذلك نعيد ما ذكرناه من قبل ، وهو أن البوذيين قد انقسموا فى القرن

المسيحى الأول إلى فريقين : فريق الماهايانا ؛ أى المركبة الـكبرى ، وفريق الهينايانا ؛ أى المركبة الصغرى ، وكانت تعاليم الفرقة الثانية أقرب إلى تعاليم البوذية الأولى بميلها نحو السلوك التصوفى التقشفى ، أما تعاليم الفرقة الأولى — التى انتشرت فى الأقاليم الشمالية من بلاد الهند حتى وصلت إلى نيبال ، ثم انتقلت إلى التبت والصين ومنغوليا واليابان — فقد اتجهت إلى النظر إلى بوذا على أنه كائن لاهوتى هبط إلى هذا العالم لينقذه مما فيه من شرور . وقد أضاف أتباع هذا المذهب إلى بوذا ساكيامونى بوذوات آخرين ، وعدة أشخاص فى دور الإعداد لمرتبة البوذوية ، وحددوا لـكل من هؤلاء عوالم جديدة يظهرون فيها .

وقد تأثر مذهب الماهايانا فى نموه وتطوره ببعض الآراء الفلسفية والدينية غير البوذية ، دون مساس بالمبادىء الأساسية التى قامت عليها البوذية الأصلية ، وقد كان هذا المذهب التقدمى هو المذهب الذى انتشر فى الصين فى العصر الحديث .

وعلى الرغم من أن هذا المذهب تقدمى فإنه معقد متشعب الأطراف ، لا يـكاد الشخص العادى يعرف من تفصيلاته شيئا يذكر ؛ ولذا يكتفى فى تدينه بأن يذهب إلى المعبد ، ويقوم بمراسيم العبادة ، من سجود للآلهة ، وإضاءة القناديل ، وإطلاق البخور أو غيره من المواد العطرية . وقد يستمع إلى بعض المواعظ تتلى عليه بلغة لا يفهمها هو ، وقد لا يفهمها القسس أنفسهم . وبعد أن يدفع النذور والرسوم المقررة ينصرف وهو لا يدرى شيئا عن تاريخ مذهبه ، ولا عن مبادىء عقائده الدينية التى يؤمن بها ، ويؤمن أنها ستنقذه من الشر فى مستقبل حياته . أما القليل من الحقائق المتعلقة بتاريخ المذهب وعقائده فلا يعرفه إلا المثقفون من رجال الـكهنوت .

٤ — فى اليابان :

تبين لنا مما سبق أن البوذية دخلت الصين أول مادخلت فى مستهل التاريخ الميلادى ، وأنها لم تنشط ولم تثبت أقدامها هنالك إلا فى القرن الرابع الميلادى . وبعد ذلك بقرنين أى حوالى سنة ٥٢٢م أخذ هذا الدين يدخل اليابان من الصين بطريق كوريا .

ولم يتقبله اليابانيون بقبول حسن فى أول الأمر ؛ ذلك لأن ماصحب دخوله من عرض أصنام مزينة بأنواع الزينات الفاخرة كان من شأنه أن ينفر من هذا الدين اليابانيين الذين لم يعبدوا الأصنام من قبل ، ولم يألفوا العبادة فى المعابد المزدانة بأنواع الزخارف التى تخلب الأنظار .

ولكن اليابانيين لم يلبثوا أن وجدوا فى هذا الدين الجديد من المبادىء الخلقية القويمة، والتعاليم الاجتماعية السليمة ماجذبهم إليه ، وجعلهم فى الوقت نفسه ينظرون إلى الشنتو — ديانتهم القديمة الخالية من مظاهر النشاط والقوة — نظرة ينقصها الاكتراث . وبعد صراع عنيف لم يخل من سفك الدماء وإزهاق الأرواح كسبت البوذية المعركة .

وزاد فى قوتها ما لقيته من تأييد وتشجيع على يد الأمير شوتوكو Shotoku فى عهد الإمبراطور سويكو Suiku (٥٦٣ــ٦٢١م) ؛ فقد أمر ذلك الأمير ــ وكان الوصى على العرش ــ بإقامة المعابد فى أنحاء البلاد . وفى ذلك العصر قسمت اليابان إلى مقاطعات دينية يسيطر على كل منها زعيم بوذى ، ولم تكن واجبات القسس مقصورة على تلقين العلوم والمعارف الدينية ، بل إن الأمير شجعهم على تعليم بعض الفنون الهندسية ؛ كإنشاء الطرق، وبناء الجسور. ولم يكتف بذلك بل إنه أرسل

الطلبة إلى الصين ليلموا بأسرار الدين الجديد ، ويستقوا مبادئه من الصين ، تلك البلاد التى أشرقت منها على اليابان شمس البوذية .

وفيما بين منتصف القرن السابع ومنتصف القرن الثامن بعد الميلاد قامت فى اليابان ست فرق دينية بوذية ، نهجت منهج الهينايانا ؛ أى المركبة الصغرى ، وكانت تعاليمها غير ناضجة ، يعوزها النظام والكمال .

وكان معظم الدعاة حتى ذلك الحين من الصينيين والكوريين ، ومنذ بداية القرن الثامن فصاعدا حين أصبحت كيوتو kiotu العاصمة الدائمة للإمبراطورية اليابانية أخذ فريق من القسس اليابانيين الذين عرفوا بحدة الذكاء ، وصفاء القريحة والإخلاص فى التدين يهرعون إلى الصين ليأتوا لبلادهم بالتعاليم البوذية المعدلة التي كانت منتشرة هنالك .

وفى سنة ٨٠٠ م ظهر دينجيو Dengyo وأسس فرقة بوذية خاصة ، أطلق عليها اسم فرقة التيندى Tendai أى السكينة الربانية ، كما ظهر القديس كوبو kobo (٧٧٤ — ٨٣٤م) ، وأسس فرقة أخرى سميت فرقة الشنجون Shigun أى كلمة الحق .

وتبع هاتين الفرقتين فرقة أخرى نما عددها حتى صار بالبلاد ست فرق رئيسية ، تفرع منها سبع وثلاثون فرقة فرعية .

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن التعاليم البوذية الخلقية وغيرها قد تشعبت مباحثها ، وتعددت نواحيها ، واتسع مجال البحث فيها إلى حد بعيد المدى ، حتى كان من الممكن أن يدب النزاع والشقاق بين أتباع البوذية ، وأن تتعدد فرقها ، وأن تختار كل فرقة من هذه التعاليم ما يحلو لها اختياره .

ويقال إن كتب الماهايانا البوذية المقدسة قد وصلت فى الصين إلى درجة من الضخامة لا نظير لها فى العالم ؛ إذ قد بلغت مايساوى العهد الجديد — الكتاب المقدس لدى المسيحية — نحو سبعين مرة ، وبلغت الترجمة الصينية لأحد هذه الكتب ـ وهو كتاب براجانا بارامينا ـ حجما يساوى وحده الكتاب المقدس المسيحى نحو خمس وعشرين مرة. وقد كان من الطبيعى إزاء هذه التعاليم الضخمة المتعددة الجوانب أن تكثر المذاهب وتتعدد الفرق البوذية التى شقت كل منها لنفسها طريقها الخاص بها ؛ متأثرة فى ذلك بمبدأين هما : مبدأ التأويل ، ومبدأ الاختيار. أما مبدأ التأويل فهو أن تشرح كل فرقة النصوص القديمة بحسب اجتهادها ، وأما الاختيار فهو أن تختار كل فرقة من التعاليم القديمة مايلائم ظروفها وطريقتها فى التفكير .

وقد تجلى هذا الاختيار بأجلى مظاهر، فى حالة كوبو الآنف ذكره؛فقدسلك فى بناء مذهبه مسلكا خاصا يعد فى مجموعه نتيجة لتفكيره الخاص ، وعارض مذهب الهنايانا الذى كان يدعو أتباعه إلى أن يعمل كل فرد منهم على إنقاذ نفسه لاغير ، وجنح إلىمذهب الماهايانا الذى كان يوجبعلى أتباعه ألا يقصرواجهودهم على إنقاذ أنفسهم من شرور الماديات ، بل يعملوا جاهدين فى سبيل إنقاذ غيرهم ، ومعونتهم ، وطلب الشفاعة لهم.

وفى سنة ١١٥٣ م ظهرت فى اليابان فرقة جديدة تسمى فرقة الجودو godu أى البلد الطاهر ، التى أسسها قسيس اسمه سينكو Senku ، واشتهر بين أتباعه باسم هونين شونين Honen Shonin . وكان أهم مبادئه أنالفضيلةالوحيدة التى تنقذ الإنسان من الشر هى أن تثق ثقة عمياء بجهود المنقذ، وأن يثابر علىالتعبد بتلاوة النصوص الدينية دون انقطاع .

وفى القرن الثالث عشر ظهرت فرقة بوذية قدر لها أن تكون أعظم الفرق البوذية وأقواها نفوذا فى اليابان ، تلك هى فرقة جودو شنشو Shinshu، أى فرقة جودو الصحيحة ، أسسها شنران Shinran (١١٧٣ — ١٢٦٢م) ، وكان أحد تلاميذ هونين شونين المحببين إليه . وقد أقامت هذه الفرقة كثيرا من الأديرة الضخمة : اثنان منها فى عاصمة اليابان . وكان من أهم مبادىء هذه الفرقة أنها تخلت عن جميع المباحث المتعلقة بما وراء الطبيعة ، ولم تعن بفلسفة التدين ، ولم تفرض على أتباعها التبتل والانقطاع للعبادة ، ولا التعهد بالرهبنة ، وهى الامتناع عن تناول الأعمال الدنيوية ، واكتفت منهم بأن يؤمنوا بالمنقذ إيمانا عميقا .

وقد عرفت هذه الفرقة فى العصر الحديث بأنها أكثر الفرق البوذية مرونة ، وأشدها رغبة فى التقدم والاتصال بالثقافات الأجنبية . ومن دلائل ذلك أنها تختار من تتوسم فيهم النجابة والفطنة من الطلاب ، وترسلهم إلى أوربا وأمريكا ليكملوا ثقافتهم الدينية والمدنية هنالك .

وقبل ظهور فرقة شنشو ببضع سنين كانت فرقة بوذية قد ظهرت فى اليابان أيضاً، وهى فرقة الزن zen ، التى تشعبت إلى ثلاث شعب رئيسية. وتقوم مبادىء هذه الفرقة على الاهتمام بالتبتل ، ذلك أنها تقول إن التبتل هو الطريق الوحيد الموصل إلى العرفان أو إدراك الحقائق الربانية ، وأن المعرفة قد تنتقل إلى القلب من القلب مباشرة لا من اللسان .

ولكن فرقة فرعية تنتمى إلى هذه الفرقة أضافت إلى التبتل البحث أو الاطلاع العلمى ، وجعلته وسيلة ثانية للوصول إلى الحقيقة ، وقالت إن الإنسان لا يصل إلى أعلى درجات الحكمة إلا حينما يدرك أن المظاهر المادية الخارجية التى يشاهدها الحس مظاهر خداعة لا ظل لها من الحقيقة . وقد عرف أتباع هذه الفرقة الفرعية بالشغف بالبحث العلمى ، والانصراف عن امتلاك العقارات وغيرها من الماديات .

وأخيرا نتحدث عن فرقة بوذية لها طابع خاص ، وهى الفرقة التى أسسها نخيرين (Nichiren ١٢٢٢ — ١٢٨٢م)

تعتقد هذه الفرقة أنه ليس فى الوجود إلا بوذا الإله الواحد ، وأنه بمثابة القمر فى السماء ، ومن عداه من البوذوات ليسوا إلا كأشعة القمر الحائلة المتغيرة ، التى تنعكس على سطح الماء ، وأن هذا الكائن الواحد هو مصدر جميع مظاهر الوجود التى يشاهدها الحس ، وهو الذى منه تستمد جميع هذه المظاهر وجودها .

وتقول هذه الفرقة : إن بوذية غيرهم الناقصة تقر مبدأ الكارما ، أى مبدأ السبب والسبب ، أما بوذيتهم الكاملة فترى أن الحلقة الأولى من سلسلة الأسباب والمسببات هى بوذا الأول ، مصدر النور ، ومنبع الحكمة .

وبهذه العقيدة وصلت البوذية فى اليابان إلى مبدأ التوحيد ، أى القول بإله واحد منه تستمد جميع الكائنات وجودها وحياتها وحركاتها .

٥ — فى التبت :

انتقلت البوذية إلى التبت فى صورتها المشوهة المليئة بالأساطير ، وكان أول ظهورها هنالك فى عهد الملك سرونج تسان غامبيو Srong Tsan Gampeu الذى أنشأ لهاسا (Lhasa) عاصمة التبت الحالية التى أشرنا إليها من قبل .

ومن غرائب المصادفات أن هذا الملك قرر إدخال البوذية فى بلاده فى السنة نفسها التى هاجر فيها الرسول محمد من مكة إلى المدينة أى سنة ٦٢٢ م ، وكانت سنه إذ ذاك حوالى اثنتين وعشرين سنة . ذلك أنه فى تلك السنة أرسل رسولا من عظماء التبت اسمه تومى سامبهوتا إلى الهند ليجمع الكتب البوذية المقدسة ، ويترجمها إلى لغة بلاده، فصدع الرسول بالأمر، وابتكر لهذا الغرض أبجدية تبتية

على نمط الأبجدية الهندية . ويعزى إليه أنه ألف بعض كتب فى البوذية .

وكان لملك التبت زوجتان ملكتان شاركتاه التحمس للبوذية ، وكانت إحداها صينية والأخرى هندية من أقليم نيبال . ويقال إن كلا منهما أحضرت معها بعض الكتب البوذية ، وبعض التماثيل والآثار البوذية المقدسة .

وقد علا شأنهما فى نظر سكان البلاد حتى نظروا إليهما نظرة تقديس ، وعبدوها كما تعبد الآلهة ، وكذلك كانت نظرتهم إلى الملك نفسه ؛ ومن ثم ارتفعت منزلة الأسرة المالكة حتى وصلت إلى منزلة الآلهة .

وقد بذل هذا الملك جهودا متواصلة فى النهوض ببلاده ؛ فحفر القنوات ، وأقام عليها الجسور ، وعنى بالزراعة والصناعة . ومع ذلك كان نجاحه فى إدارة شئون البلاد محدودا ، كما كان قبول رعيته للبوذية ظاهريا ، فلم تلبث البوذية بعد وفاته ووفاة زوجتيه أن تدهورت ، وصار أتباعها فى عهد من تلاه من الملوك عرضة للاضطهاد والتعذيب والتشريد . وبقيت الحال كذلك أكثر من نصف قرن حتى جلس على عرش الملك كيرسونج تسان (kir Song Tsan ٧٤٠–٧٨٦م) فأعاد إلى البوذية مجدها ، ووطد فى البلاد أركانها . ولكن لانج دارما Lang Darma الذى خلف أباه كير على العرش تنكر للبوذية وأخمد أنفاس البوذيين ؛ ولذا يسميه هؤلاء تمثال الشيطان .

وفى سنة ٨٥٠م اغتيل الملك لانج ، ونشبت فى البلاد حروب أهلية ، وحلت بها فوضى استمرت أكثر من قرن . وفى سنة ٩٧١م جلس على العرش بيلام غور (Bilsm Gur) فبدأت البوذية عهداً جديدا ، وأخذ نفوذ رجال الكهنوت البوذيين يقوى ، والتفوا حول زعيمهم اللاما Lama [١]

---

(١) هذا هو لقب الزعيم الدينى فى بلاد التبت .

وبينما كان نفوذ رجال الدين يقوى شيئا فشيئا كانت حالة البلاد الداخلية تتدهور . وما زالت كذلك حتى ظهر جنكيز خان (١٢٠٦ ـ ١٢٢٧م) وأسس الإمبراطورية المغولية ، واعتنق حفيده قبلاى خان (١٢٥٧ ـ ١٢٩٤م) الديانة البوذية على يد اللاما .

وقد انحاز قبلاى خان إلى جانب رجال الكهنوت ، وعين اللاما رئيسا لدير ساكيا فى جنوبى التبت ، ومنحه لقب « حاكم البلاد » وزعيم الدين ، وخوله سلطة الهيمنة على جميع حكام الأقاليم وجميع رجال الدين . وفى مقابل ذلك نصب اللاما قبلاى خان إمبراطورا للإمبراطورية المغولية ،وبذلك تم فى وقت واحد إدخال التبت فى حوزة إمبراطور الصين ، وجعل اللاما ـ الزعيم الدينى ـ حاكما سياسياً لها .

وظل أمر البوذية فى تقدم فى عهد خلفاء قبلاى خان ، وصار حكم البلاد وراثيا مقصورا على اللاما ، وكان ذلك سبباً فى خروج اللاما على التعاليم البوذية القديمة التى تقضى بألا يتزوج رجال الدين ، فكان اللاما يتزوج مرة بعد أخرى — إذا أراد — حتى ينجب من يخلفه على عرش البلاد .

ولكن هذه السيطرة لم تدم أكثر من حوالى نصف قرن ، فإنه قد ظهر فى البلاد مصلح دينى اسمه تسونج كابا .

ولد هذا الرجل سنة١٣٥٧ م، ونشأ نشأة دينية ، وما إن أدرك مرحلة الرجولة حتى علا شأنه ، ، والتف حوله آلاف من التلاميذ والأنصار . ولما أنس فى نفسه قوة ، ورأى هذه الآلاف المؤلفة من الأنصار يلتفون حوله ثار فى وجه النظام الدينى السياسى القائم ، وكان أول ما نادى به أن يرجع رجال الدين إلى التقاليد البوذية ،فيحرموا على أنفسهم الزواج ، ويلبسوا الملابس التقشفية الساذجة ، ولكى

يميز أنصاره من أتباعه دعا مريديه من رجال الدين أن يرتدوا أردية صفراء أو برتقالية اللون كما كان يفعل بوذا مؤسس الطريقة البوذية . ثم دعا الناس إلى الرجوع إلى تعاليم بوذا الأولى ، وترك الأساطير والخرافات التي تسربت إلى هذا الدين. وكانت ثورته سبباً في ضعف شأن اللاما ، وانصراف الناس من حوله ومن حول أتباعه أصحاب الأردية الحمراء . ولقد عظم شأن الطائفة الحديثة حتى اضطر إمبراطور الصين في منتصف القرن الخامس عشر إلى تعيين زعيميها إذ ذاك حاكمين سياسيين للتبت .

وعلى الرغم مما بذل المصلحون الدينيون من جهود في سبيل الإصلاح ظلت جماهير البوذيين في التبت يتعلقون بأهداب الأساطير والخرافات ، وينظرون إلى اللاما نظرة تقديس تصل في بعض الحالات إلى درجة العبادة ؛ معتقدين أن روح الإله قد حلت به . وقد ذكرنا فيما سبق أنهم أقاموا صنما فخما من الذهب يمثل بوذا ، وعبدوه ، وقدموا له القرابين[1] ومع أن نفوذ اللاما السياسي كان مقصورا على التبت وحدها فإن نفوذه الديني قد امتـــد حتى شمل الصين وسائر بلاد الإمبراطورية المغولية .

---

(١) انظر ص ١١٥ من هذا الكتاب .

الفصل الخامس عشر

الإسلام والبوذية

---

١ — لقد كان الشرق من أقصاه إلى أدناه ميدانا لصراع عنيف بين الأديان الكبرى ؛ فقد ظهرت اليهودية حوالى أواخر القرن الثالث عشر بعد الميلاد ، ثم ظهرت البوذية والكنفشيوسية والزرادشتية فى القرن السادس قبل الميلاد أيضا ، ثم ظهرت المسيحية ، وتلاها الإسلام فظهر فى أوائل القرن السابع بعد الميلاد .

وكان الإسلام بعد انتشاره فى الشرق من أشد الأديان معارضة للبوذية فى الهند ، ثم فيما جاورها من الممالك .

ولا يتسع المقام لعرض هذا الصراع عرضا تاريخيا ، وإنما يعنينا هنا أن نشير إشارة عابرة إلى ما بين الإسلام والبوذية من أوجه الاتفاق والاختلاف .

٢ — والواقع أن الموازنة بين هاتين الديانتين تسفر — لامحالة — عن فروق جوهرية بينهما فى العقائد والتشريعات والأخلاق ؛ ولعل ذلك يرجع إلى تطور العقلية البشرية تطورا مستمرا ، ونمو الحياة الاجتماعية الإنسانية نموا مطردا ، وإلى أن الشرائع والديانات لا بد أن تساير العقلية البشرية والحياة الإنسانية فى تطورها ونموها . ولقد كانت الفترة الفاصلة بين البوذية والإسلام — وهى حوالى اثنى عشر قرنا — فترة كافية لنضج عقلية الإنسان ، واتساع نطاق حياته ، إلى درجة صار معها فى حاجة إلى شرائع ناضجة ، متعددة النواحى ، تنظم حياته المادية والروحانية .

٣ — وأول ما يسترعى الانتباه من الفوارق بين الديانتين هو الفرق الشاسع بينهما فى العقيدة الإلهية.

فبينما نرى البوذية الأولى تقف من الإلوهية موقفا سلبيا ، فلا تثبت وجود الإله ولا تنفيه ، وبينما نجد هذه الديانة فى صورها المستحدثة تتحدث عن وجود الإله ووحدانيته أحاديث غامضة مبهمة ، أو تنحدر إلى الدرك الأسفل فتجعل من الملوك أو رؤساء الكهنوت آلهة أو شبه آلهة يعبدون ، أقول — بينما نجد هذا وذاك إذا بنا نجد الإسلام يتحدث عن الإله حديثا واضحا مفهوما لا لبس فيه ولا غموض ؛ فالله واحد لا شريك له « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » ، و « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » . و « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر» و « هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم »[1] .

وهو سبحانه المسيطر على جميع المخلوقات ، الخبير بشئون الكائنات « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض . »[2] و « وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم »[3] .

وهو جل شأنه مبرأ من جميع النقائص لا يشبه شيئا ، وليس كمثله شىء ، وهو منزه عن الحلول بأى معنى من معانيه ، وعن الاتحاد بأية صورة من صوره .

٤ — وهو تعالى المنعم على عباده ، المتفضل عليهم ؛ فقد خلق الإنسان

---

(١) الحشر : ٢٣ — ٢٥ .

(٢) سبأ : ٤ (٣) المجادلة : ٨.

فى أحسن تقويم ، وعلمه الفصاحة والبيان ، وغرس فى نفسه القدرة على اكتساب العلوم والمعارف التى بها يقتحم صعاب الحياة ويحل مشكلاتها ، ويجنى ثمراتها . ثم أنعم عليه بما لا يحصى من النعم ، وسخر له الشمس والقمر ، والأرض وما فيها من بحار وأنهار وأنعام . استمع إليه تعالى يقول : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون »[١] .

ثم تفضل سبحانه على الناس فأرسل فيهم رسلا يرشدونهم إلى الحق ، ويدعونهم إلى الخير ، ويأمرونهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر ، ويحلون لهم الطيبات ، ويحرمون عليهم الخبائث .

٥ — ولكى يشكر الإنسان هذه النعم أوجب الله عليه الإيمان . والإيمان

---

(١) النحل : ٦ — ٢٠ .

فى الإسلام واضح المعالم، بين الاتجاهات ؛ فهو يشمل الإيمان بالله تعالى ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

اقرأ قوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله . »[١] وقوله عز وجل : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين[٢] » .

والإيمان بالله تعالى يشمل الإيمان بوجوده ، وباتصافه بجميع صفات الكمال ، وتنزهه عن جميع صفات النقص ، وبأنه وحده هو المسيطر على الكون ، المتصرف فى جميع أموره ، المدبر لجميع شئونه .

والإيمان بالملائكة يشمل الإيمان بوجودهم ، وبأنهم ليسوا إناثا ، وبأنهم عباد الله الذى لا يعصون أوامره ، بل يفعلون ما يؤمرون، ولا يجرؤ أحدهم على ادعاء الألوهية من دون الله . اقرأ فى ذلك قوله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه ، بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين[٣] » .
وقوله عز وجل : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا . أشهدوا خلقهم . »[٤] .

والإيمان بالكتب السماوية المقدسة يشمل الاعتقاد الجازم بأنها من عند الله

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .
(٢) البقرة : ١٧٧ .
(٣) الأنبياء : ٢٧ — ٣٠ .
(٤) الزخرف : ١٤ .

حقا ، أنزلها الله تعالى بطريق الوحى على رسله ليبلغوها الناس ، ويذيعوا فيهم ماتضمنته من مواعظ وأوامر ونواه ؛ ليتبعوا المواعظ والأوامر ، ويجتنبوا النواهى، فيحظوا بخيرى الدنيا والآخرة . وفى ذلك يقول سبحانه : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط[1] » . ويقول أيضا : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه »[2] .

والإيمان بالرسل يتضمن الاعتراف بأن الله تعالى أرسلهم بطريق الوحى لهداية الناس ، وبأنه يؤيدهم بما يظهر على أيديهم من المعجزات البينات ، وبأنهم صادقون فى أقوالهم ، أمناء على أداء رسالاتهم؛ يبلغونها الناس صحيحة لا مسخ فيها ولا تأويل ، ولا تغيير ولا تبديل ، وبأنهم أذكياء قادرون على إقامة الحجج القاطعة ، والبراهين الدامغة الدالة على صدقهم فى دعوتهم .

يقول الله عز وجل : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »[3] ويقول سبحانه : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك »[4] .

وقد ذكر القرآن فى أربع آيات متوالية أسماء ثمانية عشر رسولا ، وذلك حيث يقول تعالى : وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذرية داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون . وكذلك نجزى

---

(١) الحديد : ٢٦ .
(٢) البقرة : ٢١٣ .
(٣) فاطر : ٢٤ .
(٤) المؤمن : ٧٧ .

المحسنين . وزكريا ويحيي وعيسى وإلياس . كل من الصالحين ، وإسمعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، واجتبيناهم ، وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة »[1] .

وذكر القرآن أيضاً أسماء سبعة آخرين من الأنبياء وهم : آدم ، وشعيب ، وهود ، وصالح ، وإدريس ، وذو الكفل ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين .
أما اليوم الآخر فإن القرآن الكريم يفيض فى وصفه : فيذكر البعث ، والحشر ، والحساب ، والثواب ، والعقاب ، ويتحدث عن الجنة ودرجاتها ، وعن النار وطبقاتها ، ويصف كل هذه وصفاً دقيقاً يقربها إلى الأذهان . « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . ومن ثم نستطيع أن نقول : إنه لا كارما فى الإسلام .

وسواء أكان ما ذكره القرآن عن اليوم الآخر وما فيه من قبيل الوصف المطابق للواقع ، أم كان من قبيل التمثيل المراد به تقريب حوادث ذلك اليوم أحواله وأهواله إلى أذهان الناس — فإن العقيدة التى يجب على المسلم اعتناقها والإيمان بها إيماناً جازماً هى أن الناس سوف يحشرون ويحاسبون ، ويثابون أو يعاقبون على ما فعلوا فى هذه الحياة الدنيا ، بقطع النظر عن الصور الحقيقية للحشر والحساب ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار .

وفى القرآن الكريم كثير من الآيات التى تتحدث عن اليوم الآخر وتصف ما يحدث فيه . هذا فى حين أننا لا نجد فى البوذية عن هذا اليوم شيئاً يذكر .

---

(١) الأنعام : ٨٤ — ٩٠ .

والرجعة بالمعنى الذى فهمه بوذا وأتباعه ليست من عقائد الإسلام فى شىء ؛ فهذا هو ما يفهم من قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى إحدى خطبه : « فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار . »

٦ — وإذا تركنا العقائد وانتقلنا إلى الآداب والأخلاق الدينية وجدنا الفرق بين الديانتين عظيما أيضاً ؛ فبينما تدعو البوذية إلى ضبط النفس وحرمانها جميع اللذات والشهوات أياً كان نوعها ، وبذلك تكلف الطبيعة البشرية مالا طاقة لها به ، إذا بالإسلام يدعو إلى ضبط النفس أيضاً ، ولكنه يفصل الكلام فيه تفصيلا يكاد يبلغ درجة الكمال ، فيوضح صوره المختلفة كالصبر والحلم وكظم الغيظ والعفة والعفو عند المقدرة .

ولا يكتفى الإسلام بذلك ، بل إنه يضع التشريعات الكفيلة بضبط النفس ؛ فهو يوجب على كل مسلم أن يؤدى الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة . ولا ريب أن الصلاة تستلزم ضبط الحركات ، والامتناع عن كل ما عدا فروض الصلاة وسننها ، وحصر الذهن فى التوجه إلى الله ؛ ولذا نجد الصلاة مقرونة بالصبر فى بعض آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . »

والصوم فى مقدمة الشعائر الدينية التى تعود الإنسان الصبر وضبط النفس بالامتناع عن الطعام والشراب ، والابتعاد عن جميع اللذات الحيوانية بعداً تاماً خلال ساعات طوال .

وإيتاء الزكاة يستلزم ضرباً من ضروب الصبر وضبط النفس الميالة إلى

الشح ؛ فمعطى الزكاة يحرم نفسه جزءاً من ماله ، ويقسرها على البذل والسخاء الذى قد يصعب عليها .

والإيثار منزلة أعلى من منزلة الزكاة أو التصدق ، وفيه يتجلى الصبر وضبط النفس بصورة أوضح ؛ لأن معناه حرمان الإنسان نفسه ما هى فى حاجة إليه ، وتفضيل غيره عليه فى تناول الطعام ونحوه ؛ ولذا مدح الله تعالى المؤثرين فقال : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .[1] ووعدهم جنته ورضوانه فقال : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولاشكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » .[2]

والحج من شأنه أن يعود الإنسان الصبر على مشقات السفر ، وآلام الغربة ، وعلى ما يعانيه من متاعب عند أداء شعائر الحج .

والجهاد فى سبيل الله يتضمن كثيراً من أنواع المشقة والحرمان وضبط النفس؛ أما المشقة ففى الحل والترحال ، والصمود فى وجه العدو ، وتحمل أذى الحروب على اختلاف أنواعه ودرجاته . وأما الحرمان ففى الاكتفاء بالقدر الضرورى من الطعام والشراب والغطاء والكساء ، وفى قلة أوقات النوم والراحة ، وفى عدم

---

(١) الحشر : ١٠ .

(٢) الدهر : ٤ — ٢٣ .

الاستمتاع بمباهج الحياة التى يستمتع بها القاعدون ؛ ولذا يقول الله تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم[١] » .

وإذا شمل الجهاد فى سبيل الله الجهاد بالنفس والمال كان أدعى إلى الصبر والإيمان فى ضبط النفس .

والخلاصة أن الإسلام لا يدعو إلى ضبط النفس فحسب ، بل إنه ينظمه أيضاً ، ويضع التشريعات التى ترغم المسلم عليه .

ومن بدائع النظم القرآنى ، وروائع الكلام الربانى آية كريمة جمعت بين الإيمان على اختلاف شعبه ، ومظاهر ضبط النفس فى شتى صوره ، تلك هى قوله تعالى :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون[٢] » .

وليس موقف الإسلام من الاستمتاع بملذات الحياة ومباهجها موقفاً سلبياً ولا غامضاً ، وإنما هو موقف صريح واضح لا لبس فيه ، يصوره قوله تعالى على لسان قوم موسى لقارون : وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا »[٣] . وقوله تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا

---

(١) البقرة . ٢١٦ .
(٢) البقرة ١٧٧ .
(٣) القصص : ٧٨ .

واشربوا، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين — قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة » [١] .

وقوله : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما[٢] » .

وقوله : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » [٣] .

وليس من تعاليم الإسلام التسول والرهبنة ، اللذان دعا إليهما بوذا ، واتبعهما هو وأصحابه ؛ فإن التسول يستتبع الذل والمسكنة ، وينافى الكرامة الشخصية التى يحرص الإسلام على أن يكون الاحتفاظ بها من صفات المسلم . يدل على ذلك قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا، يبتغون فضلا من الله ورضوانا . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ؛ ليغيظ بهم الكفار[٤] » . وقوله :

« للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافا » [٥] .

والرهبنة تنافى الطبيعة البشرية ويترتب عليها كثير من الآثام . وفى تاريخ الرهبان والراهبات ما يؤيد صحة ما نقول ، ويبين الحكمة فى أن روح الإسلام تأباها ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ،

---

(١) الأعراف : ٣١ — ٣٢ .
(٢) الفرقان : ٦٨ .
(٣) الملك : ١٦ .
(٤) الفتح : ٢٩ .
(٥) البقرة : ٢٧٣ .

ورهبانية ابتدعوها ، « ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها »[١].

ومع أن الإسلام يأبى التسول ويستنكر الرهبنة فإنه يحبب إلى الناس الأعمال الصالحة التي تنفعهم يوم القيامة ؛ ويزهدهم فى زخارف الدنيا البراقة الزائلة ، وملذاتها الغرارة الباطلة . وفى ذلك يقول الله عز وجل : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاماً ،وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم[٢] ».

٧ — أما المبادىء الثمانية[٣] التى ينطوى عليها المسلك الطيب المرضى لدى بوذا فقد شرحها الإسلام ، وحث على اتباعها ؛ فإن الإسلام قصد أولا وقبل كل شىء إلى هدم العقائد الفاسدة التى شاعت بين الناس ، وإزالة الأوهام المضرة التى علقت بأذهانهم ، وإحلال العقائد الصالحة والآراء السديدة محلها .

واستنكر الإسلام فيما استنكر الأغراض الخبيثة والنيات السيئة التى كان يضمرها المنافقون ، وحمل على النفاق والمنافقين حملة شعواء لا هوادة فيها .

وامتدح الكلمة الطيبة ، وجعلها بمثابة الصدقة ، ودعا إلى العمل الصالح ، وإلى اتباع طريق مستقيم فى الحياة ، وإلى بذل الجهد فى الأعمال ، والاهتمام بها

---

(١) الحديد : ٢٨ .

(٢) الحديد : ٢١ — ٢٢ .

(٣) راجع ص ٨٤ — ٨٥ من هذا الكتاب .

لإتقانها وإحكامها ، وإلى النظر فى ماـكوت السموات ، والتأمل فى عجائب المخلوقات ، وإلى التبتل والانقطاع لعبادة الله ولو بعض الوقت .

يقول الله تعالى : « الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » .[١] ومن الظلمات الشرك وغيره من العقائد والتقاليد الفاسدة ، ومن مظاهر النور الإيمان بالله وحده وغيره من العقائد الصحيحة ، وكذلك الأعمال والتقاليد الصالحة . ويقول سبحانه : إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما » .[٢] « والتى هى أقوم » هى الطريقة المثلى التى تتضمن المبادىء الثمانية ، وما هو أكثر منها .

ويقول عز وجل : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » .[٣] ويقول أيضا : « إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه . والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » .[٤] وإنك لتجد فى هذه الآية الكريمة ثلاثة من أهم المبادىء الثمانية وهى : الكلمة الطيبة ، والعمل الصالح ، وكذلك النية الحسنة أو الغرض الشريف ؛ فإن ضد النية الحسنة هو المكر السيء المشار إليه بقوله تعالى : والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد .

ويقول تباركت أسماؤه : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار ، يحلون

---

(١) إبراهيم : ٢ .
(٢) الإسراء : ١٠ — ١١ .
(٣) ابراهيم : ٢٥ — ٢٦ .
(٤) فاطر : ١١ .

فيها من أساور من ذهب ، ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق ، متكئين فيها على الآرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا » .[١]

ويقول عز من قائل : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » .[٢] ويقول أيضا « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهـــــار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا . سبحانك فقنا عذاب النار ».[٣] ويقول : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » .[٤]

ويقول سبحانه وتعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا » .[٥] ويقول : يأيها المزمل . قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ، ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا . إن لك فى النهار سبحا طويلا . واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ».[٦]

٨ — وأما المحبة فإن الإسلام لا يحث عليها فحسب بل إنه يعظم من شأنها أيضا ، ويجعلها من شروط الإيمان؛ ففى الحديث الشريف : لا تؤمنوا حتى تحابوا » . ولا يكتفى الإسلام بالدعوة إلى مجرد المحبة التى موطنها القلب ، بل إنه يدعو إلى الإحسان بالقول والفعل لتكون الأعمال والأقوال مطابقة للنوايا والأفكار ،

---

(١) الكهف : ٣١ — ٣٢ .
(٢) يونس : ١٠٢ .
(٣) آل عمران : ١٩١ — ١٩٢ .
(٤) الذاريات : ٢١ — ٢٢ .
(٥) الكهف : ٢٩ .   (٦) المزمل : ٢ — ٩

ويفصّل فى بيان ضروب الإحسان ومواطنه تفصيلا لا مزيد عليه ؛ فيأمر بالإحسان إلى الوالدين ، وإلى ذوى القربى ، وإلى اليتامى والمساكين ، وإلى الجيران قريبين كانوا أو بعيدين ، وإلى الأصدقاء ، وإلى أبناء السبيل ، وإلى الأرقاء . ويجعل الأمر بالإحسان عقب الأمر بعبادته وعدم الإشراك به ؛ إشارة إلى وجوب الاهتمام به ، وذلك حيث يقول سبحانه وتعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم »[1] .

وليس وجوب الإحسان مقصورا على الأصدقاء بل إنه يشمل الأعداء ؛ فالله عز وجل يقول: « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ؛ ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم »[2].

بل إن الإحسان واجب على الإنسان نحو الحيوان ؛ ففى الحديث الشريف : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » .

٩ — وأما الوصايا السلبية أو النواهى العامة[3] فنجدها فى القرآن الكريم كاملة واضحة . وليس هذا فحسب بل إننا كثيرا ما نجد فى النظم القرآنى الكريم كل نهى مصحوبا بما يشبه أن يكون تعليلا له مبينا لحكمته : فالله تعالى يقول : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا » .[4] فالتوراة تكتفى بأن

(١) النساء : ٣٦ .
(٢) السجدة : ٣٦ .
(٣) راجع ص ٨٧ — ٨٨ من هذا الكتاب .
(٤) الإسراء : ٣٤ .

تقول : « لا تقتل » .[١] وكذلك يقول بودا ، ولكن القرآن يشير إلى بشاعة جريمة القتل وشناعتها بقوله : « التى حرم الله » ، ويزيد على ذلك الإشارة إلى أن القتل ليس محرما دائما ، بل إنه قد يكون واجبا ، وذلك حيث يقول : « إلا بالحق » .

وكذلك يقال فى قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » .[٢] وفى قوله : « ولا تقربوا الزنى ؛ إنه كان فاحشة وساء سبيلا » .[٣] وفى قوله : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » .[٤]

وكذلك شأن القرآن الكريم فى الأوامر أو الوصايا الإيجابية ؛ كما فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .[٥] وقوله « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا ونساء . »[٦]

١٠ — والإسلام مع هذا كله نظام تام وتشريع مثالى كامل؛ يبين للناس أكمل بيان الأصول المنظمة للمعاملة ، والآداب المهذبة للسلوك . وتلك آداب تكفل لمن يتبعها أن يحيا حياة سعيدة . فى عدل وأمن وطمأنينة .

« فرض الإسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقا معلوما ، يفيض به الآخرون

(١) راجع الوصايا العشر ، سفر الخروج : ٢٠ (١ — ١٧) .
(٢) المائدة : ٤٢ .
(٣) الإسراء : ٣٣ .
(٤) المائدة : ٩٤ .
(٥) التوبة : ١٢١ .
(٦) النساء : ٢ .

على الأولين سدا لحاجة المعدوم ، وتفريجا لكربة الغـارم ، وتحريرا لرقاب المستعبدين ، وتيسيرا لأبناء السبيل ، ولم يحث على شيء حثه على الإنفاق من الأموال في سبيل الخير ، وكثيرا ما جعله عنوان الإيمان ، ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم ، فاستلّ بذلك ضغائن أهل الفاقة ، ومحض صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ، فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوسهم أجمعين . وأي دواء لأمراض المجتمع أنجع من هذا ؟ ... ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

« أغلق الإسلام بأبي الشر ، وسد ينبوعي فساد العقل والمال — بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريما باتا لا هوادة فيه . »

« لم يدع الإسلام بعد ما قررنا أصلا من أصول الفضائل إلا أتى عليه ، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها ، فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده — كما ذكرنا — حرية الفكر ، واستقلال العقل في النظر ، وما به صلاح السجايا ، واستقامة الطبع ، وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها في سبيل السعي . »

« ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد ، وذخيرة لا تفنى . هل بعد الرشد وصاية ؟ وبعد اكتمال العقل ولاية ؟ كلا ! قد تبين الرشد من الغنى ، ولم يبق إلا اتباع الهدى ، والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين . »[1] .

(١) من رسالة التوحيد ، للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

الفصل السادس عشر

البوذية والتصـــوف

---

١ — من الإنصاف أن نقول إن البوذية — على الرغم مما تنطوى عليه من غموض وضعف — هى ديانة خلقية ، تدعو إلى الاستمساك بكثير من الفضائل التى تسمو بروح الإنسان ، وتباعد بينها وبين الشهوات المادية ، وتجعلها ـ بذلك ـ تحيا حياة سعيدة بريئة من الهموم والأحزان .

ومن الإنصاف أيضا أن نقول إن بوذا كان صادقا فى دعوته ، مخلصا فى اتباع مبادئه ؛ فقد آمن أصدق الإيمان بهذه المبادىء ، وأخلص أشـــد الإخلاص فى الدعوة إليها ، وظل حريصا كل الحرص عليها حتى قضى نحبه .

ولـكننا نأخذ على هذه الديانة — فيما نأخذ — أنها ليست كالزرادشتية مثلا ديانة إيجابية تدعو فى إصرار إلى الجد فى كسب الرزق ، والاختـلاط بالناس ، والزواج والتناسل ، بل إنها ديانة تـكاد تـكون سلبية ؛ أى أنها تقف من هذه الحياة موقفا سلبيا إذ تدعو أتباعها إلى التجرد من الملـكية ؛ والغلو فى الزهد ، والابتعاد عن ملذات الحياة أيا كان نوعها .

ونأخذ على بوذا وأتباع طريقته أنهم لم يكونوا مثل فيثاغورس وجماعته مثلا الذين كانوا يحيون حياة نشيطة مجدية ، بل كانوا فى زهدهم وبعدهم عن الحياة العملية أعباء ثقيلة على كاهل المجتمع ، بإيثارهم حياة الدعة والتسول والدروشة ، يتنقـلون فى البلاد ، ويأوون إلى الغابات ، ويقيمون على ضفاف الأنهار ، ويتطلعون إلى الأغنياء

الموسرين لينفقوا عليهم ويسدوا حاجاتهم . وقد رأينا أن بوذا نفسه كان يحمل وعاء التسول ويجمع فيه ما تجود به أيدى المتصدقين .

٢ — ولا ريب أن سيرة بوذا وحياته الخاصة قد راقت فى أعين كثير من الناس ، وأن فريقا من الملوك والأمراء قد سلكوا مسلكه ، وكان فى مقدمة هؤلاء آسوكا وابنه وقبلاى خان حفيد جنكيز خان .

وكان النعمان بن امرىء القيس الأعور الملقب بالسائح (٤٠٣ — ٤٣١ م) ممن سلكوا مسلك بوذا من الأمراء . فقد اجتمع له من أبهة الملك ، ووفرة المال والخدم والحشم ما لم يجتمع لغيره من ملوك الحيرة . وقد بلغ من عظمته وقوة سلطانه أنه رأى أن يشيد قصراً شامخا يشرف منه على الحيرة وما حولها ، فأمر ببناء الخورنق ، فكان يرى وهو فيه نعم الحياة تحيط به من الشرق ومن الغرب.

وأشرف ذات يوم على تلك النعم التى لا تحصى من نبات وحيوان ، وأنهار جارية وأشجار باسقة ، ورأى كثيراً من رعاياه يقومون بأعمال مختلفة . رأى كل ذلك ففكر فيه ، ثم تدبر ، وقال فى نفسه : « أى درك فى هذا الذى ملكته اليوم ويملكه غيرى غدا ؟ » فبعث إلى حجابه فنحاهم عن باب قصره . ولما جن عليه الليل التحف كساءه ، وساح فى الأرض فلم يره أحد .

وفى ذلك يقول عدى بن زيد العبادى يخاطب النعمان بن المنذر أبا قابوس (٥٨٥ — ٦١٣ م) .

وتدبر رب الخورنق إذ أشرف يوما وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال وما غبطة حى إلى الممات يصير

فهذا ملك آتاه الله بسطة فى الملك والمال والجاه ، ولكنه احتقر الدنيا وحطامها الزائل ، فهجرها وساح فى الأرض يحيا حياة الدراويش . وسواء فعل النعمان

ما فعل بوحى من ضميره وشعوره الخاص غير متأثر بغيره من الناس أو كان متأثراً بقصة بوذا وحياته فالحقيقة الواقعية أننا نجد ملكا يزهد فى الدنيا وأبهة الملك كما زهد فيهما بوذا من قبل بأكثر من أحد عشر قرنا .

ويروى التاريخ قصة مثل هذه عن إبراهيم بن أدهم بن منصور البلخى المتوفى سنة ١٦١ هـ . فقد كان إبراهيم من أبناء الملوك يرفل فى حلل النعيم ، ويستمتع بقدر غير يسير من الجاه والسلطان .

روى أنه بينما كان جالسا على باب قصره يوما ما ، وقد اصطف خدمه وحشمه على مقربة منه ، وإذا بدرويش يصل من عرض الطريق ، ويريد أن يدخل القصر . فقال له الحشم إلى أين تذهب أيها الشيخ ؟ فقال : أريد أن أدخل هذه الاستراحة . فقالوا : هذا قصر سلطان بلخ ، وليس استراحة . فقال الشيخ : لا . إنه استراحة . وسمع السلطان هذا فاستدعى الدرويش . ولما مثل بين يديه قال له : أيها الدرويش ! هذه دارى فكيف تقول إنها استراحة ؟ فأجاب الدرويش : يا إبراهيم أتأذن لى أن أسألك بعض أسئلة ؟ ملك من كانت هذه الدار فى أول الأمر ؟ فقال السلطان : كانت ملك جدى . فقال الشيخ : وملك من صارت لما توفى جدك ؟ فأجاب السلطان : ملك أبى . فقال الدرويش : وإلى من آلت بعد أن توفى والدك ؟ فأجاب السلطان : آلت إلىّ . فقال الدرويش : وإلى من تؤول بعد أن تتوفى ؟ فقال السلطان : تؤول إلى ابنى .

وحينئذ قال الدرويش : يا إبراهيم : إن المكان الذى يدخله واحد ويخرج منه غيره هو استراحة ، لا دار إقامة . فتأثر إبراهيم بذلك .

وخرج ابن أدهم يوما للصيد فأثار ثعلبا أو أرنبا ، وبينما كان يجد فى طلب فريسته إذا به يسمع هاتفا يقول له : يا إبراهيم ! ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟

ثم هتف به أيضا فسمعه كأنه يخاطبه من قربوس سرجه ويقول : ياإبراهيم: والله ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت . فنزل إبراهيم عن فرسه ، وصادف راعيا لأبيه يلبس جبة صوف فأخذها ولبسها ، وأعطى الراعى فرسه وكل ما كان معه . ثم إنه دخل البادية ، ثم رحل إلى مكة فدخلها ، وصحب بها سفيان الثورى ، والفضيل ابن عياض ، ثم انتقل إلى الشام ومات بها سنة سنة ١٦١ هـ .

من هنا نرى أن جولتزير على حق حين يقول : إن قصة إبراهيم بن أدهم تشبه قصة بوذا نفسه ، فكلاهما كان أميرا تخلى عن إمارته ، ثم سلك مسلك التبتل والتعبد .

فهل كان إبراهيم على علم بقصة بوذا لأنه بلخى ، وبلخ عاصمة بختر(باكتريا القديمة) القريبة جدا من مسقط رأى بوذا ؟ هذا ممكن ولكن ليس لدينا من الأدلة اليقينية ما يثبته .

٣ — وليس ببعيد أن التصوف الإسلامى قد تأثر إلى حد ما بالبوذية ؛ فقد ترعرع التصوف التصوف الإسلامى فى شرقى إيران حيث كانت البوذية قدفشت قبل الفتح الإسلامى بنحو ألف عام ، وكل من التصوف الإسلامى والبوذية طريقةزهد وتفكير وتقويم للنفس وتطهير لها . ومع ذلك يجب أن نقرر أن الطريقتين تختلفان اختلافا جوهريا ؛ فالبوذى يقوم أخلاقه بضبط نفسه ، أما التصوف المسلم فإنه يطهر نفسه أو يسعى فى تطهيرها بطريق معرفة الله ومحبته والاتصال به .

وربما يكون مبدأ « الفناء » مقتبسا من التعاليم البوذية وغيرها من الديانات الهندية القائلة بمبدأ وحدةالوجود . وقد يكون أبو يزيد البسطامى هو الذى نقلها من أستاذه أبى على السندى ، وأذاعها بين متصوفى المسلمين — كمايقول نيكلسون عمدة المستشرقين فى التصوف الإسلامى .

ولكن من الخطأ أن نقول إن هذا المبدأ كما هو فى التصوف الإسلامى مأخوذ عن مبدأ النيرڤانا الذى يعتنقه البوذيون ؛ فإن جمهور متصوفة المسلمين كانوا يبغضون البوذيين ويعدونهم وثنيين ؛ فمن المستبعد أن يأخذوا عنهم مبدأ من مبادئهم كما هو . وقد يؤيد ذلك ما بين الفناء والنيرڤانا من اختلاف أساسى ؛ فالفناء فى التصوف الإسلامى ينتهى إلى بقاء ، إذ أن الصوفى يفنى فى الله بإدامة التفكير فيه وفى صفاته ، ليدرك معنى وجوده هو ، ويفهم معنى حقيقة نفسه ، ويعرف الله حق المعرفة ، ويدرك الحقائق القدسية بطريق الكشف ، وهو فى كل ذلك فى حال وجد وانشراح . أما النيرڤانا فتقوم على أساس الفناء ، واندماج الروح الجزئية فى عالم الأرواح .

٤ — ومن المبادئ التى انتقلت من الفلسفات الهندية إلى التصوف الإسلامى مبدأ وحدة الوجود . أو مبدأ الاتحاد العام . ومؤداه اتصال الإله بالكون اتصالا وثيقا ، واتحاده به لدرجة يصح معها أن يقال إن العالم هو الإله ، وإن الإله هو العالم ، فكل جزء من أجزاء العالم يعد من مظاهر الإله .

ويعزى إدخال هذا المبدأ فى التصوف الإسلامى إلى أبى يزيد البسطامى الفارسى المتوفى سنة ٢٦١ هـ . وإليه تنسب عدة أقوال منها :

١ — أنا عرش الله ، واللوح المحفوظ ، والقلم ، التى بها يخلق الله الخلق ، وأنا إبراهيم وموسى وعيسى وجبريل وميكائيل وإسرافيل .

٢ — الحمد لى ، فإنى أنا الحق ، وأنا الله الحق فمن الواجب أن تنسب إلىّ جميع المحامد .

ويروى عنه فريد الدين العطار أنه قال : إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى .

ويفسر فلاسفة التصوف هذه الأقوال وما أشبهها بأن من يصل إلى مرتبة الوجود الحقيقي يفنى فى الله ، ويصير هو والله شيئا واحدا كما يقول القائل :

أنا من أهوى ومن أهــواه أنا　　نحن روحان حللنـــا بدنا

فإذا أبصـــرتنى أبصـــرته　　وإذا أبصرته أبصرتنـــا

٥ — وفى أوائل القرن الرابع الهجرى ظهر مبدأ فلسفى جديد فى التصوف الإسلامى ، ذلك هو مبدأ الحلول . ومؤداه أن النور الإلهى يحل بالجسم . والقائلون بالحلول يعتقدون أن الإله حقيقة والعالم حقيقة أخرى متعددة المظاهر ، وأن الإله يحل بأى مظهر من المظاهر فيكسبه نورا وروحانية إلهية .

أما القائلون بوحدة الوجود فيقررون أنه ليس فى الوجود إلا حقيقة واحـدة هى الحقيقة الإلهية أو الله ، وما العالم بمظاهره المختلفة إلا مظاهر للذات الإلهية .

فمن أين نشأ مبدأ الحلول ودخل فى التصوف الإسلامى ؟ لست أدرى على وجه اليقين .

فمن الممكن أن يكون قد نقل عن البوذية أو غيرها من المذاهب الهندية التى تشبهها ، شأنه فى ذلك شأن مبدأ وحدة الوجود .

ومن الممكن أيضا أن يكون ذو النون المصرى أحد أكابر متصوفة الإسلام (المتوفى سنة ٢٤٥ هـ) هو الذى نقل هذا المبدأ إلى التصوف الإسلامى ؛ فقـد قيل عنه إنه كان فيلسوفا ، وإنه درس علوم اليونان ، وكان على علم بالأفلاطونية الحديثة التى كان مبدأ الحلول من مبادئها . وقد يؤيد ذلك ما نجده من تشابه كبير بين أفكار ذى النون وما كان يقرره ديونيسيوس من مبادىء الأفلاطونية الحديثة ، التى كانت معروفة لدى الباحثين فى القرن الثالث الهجرى .

وليس ببعيد أن يكون هـــذا المبدأ قد انتقل من الفلسفة الهندية إلى الأفلاطونية الحديثة ؛ فمن الثابت أن فلوطين المصرى — المتوفى سنة ٢٧٠ م الذى تعزى إليه الزعامة الحقيقية للأفلاطونية الحديثة — قد رحل إلى فارس والهند ، وتعلم الفلسفة الشرقية .

ومن الممكن كذلك أن مبدأ الحلول قد ظهر أولا بين أهل العرفان Gnosties وهم متصوفو المسيحيين ، ومن ثم نقل بطريق مباشر إلى التصوف الإسلامى . ومذهب الحلول أحد المذاهب المسيحية كما هو معروف .

ونعود فنسأل : من أين أتى هذا المبدأ إلى أهل العرفان ؟ الظاهر أنهم تأثروا فى اعتناقه بآراء فيلون اليهودى — أول مؤسس للأفلاطونية الحديثة . ومن الثابت أن آراء أهل العرفان خليط من العقائد الشرقية (الفارسية والهندية) والآراء الفلسفية اليونانية .

والخلاصة أننا نرجح أن المنبع الأصلى لمبدأ الحلول هو بلاد الهند ، وأنه انتقل إلى التصوف الإسلامى بطريق مباشر إما من الأفلاطونية الحديثة وإما من مذهب أهل العرفان . وأن الأفلاطونية الحديثة أخذته بطريق مباشر عن الفلسفة الشرقية ، وأن أهل العرفان أخذوه إما عن الأفلاطونية الحديثة وإما عن الفلسفة الهندية .

وأشهر من ظهرت آثار هذا المبدأ فى كلامهم من متصوفى الإسلام الحسين ابن منصور الحلاج ؛ فقد كان يقول : الله ! الله ! ما فى الجبة غير الله . وكان يقول: أنا الحق . وينسب إليه البيتان :

سبحان من أودع ناسوته ... سرّ لاهوته الثـاقب

حتى بدا في خلقه ظاهرا في صورة الآكل والشارب

وقد شاع أمر الحلاج وكثر أشياعه حتى خشى الفقهاء ـ علماء الظاهر ـ أن يستفحل خطره، فأفتوا بوجوب قتله، فقتل سنة ٣٠٩ هـ في عهـــد الخليفة المقتدر .

٦ — ويروى نيكلسون أن الصوفية أخذوا استعمال المسبحات عن الرهبان البوذيين .

ولا ريب أن التسول الذى شاع بين متصوفة الإسلام قد نقل عن البوذيين بطريق مباشر أو غير مباشر . ولم يزل أمر التصوف ينمو حتى أنشئت التكايا ونحوها للمتصوفة في القرن الخامس الهجرى . وفي القرن السادس ظهرت طرق الدراويش . وكان أسبقها إلى الوجود الطريقتان الجيلانية والعدوية . وتنسب الأولى إلى عبد القادر الجيلانى (٤٧٠ — ٥٦١ هـ) ، والثانية إلى عـــدى ابن مسافر الهكارى (المتوفى في سنة ٥٥٨ هـ) ثم ظهرت طريقة أحمد الرفاعى (٥٧٠ هـ) وطريقة أبى الحسن الشاذلى (٦٥٦ هـ) ، وطريقة المولوية المنسوبة إلى المولى جلال الدين الرومى (٦٠٤ — ٦٧٢ هـ) ، ثم وصل عدد الفرق فيما بعد إلى ست وثلاثين — كما يقول فون كريمر .

وقد ساءت حال التصوف في القرن السادس الهجرى حتى قيل في وصفه : كان التصوف حالا فصار كارا ، وكان احتسابا فصار اكتسابا ، وكان استتارا فصار استهتارا ، وكان اتباعا للسلف فصار اتباعا للعلف ، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور ، وكان تعففا فصار تكلفا ، وكان تخلقا فصار تملقا ، وكان سقيا فصار لقيا ، وكان قناعة فصار فجاعة ، وكان تجريدا فصار ثريدا » .

٧ — وبعد أن كان التصوف طريقة خلقية عملية صار علما وأدبا فتح للغة العربية واللغة الفارسية بابا جديدا من أبواب الأدب هو الأدب التصوفى . وقد نشطت حركة التأليف فيه فى القرن السادس الهجرى وما بعده فظهرت كتب تصوفية نثرية ونظمية .

وأشهر من ألف فى هذا الفن من معتدلى المتصوفة أبو زكريا يحيى بن معاذ الواعظ (٢٥٨ هـ) ومحمد بن إسحق النجارى الكلاباذى (٣٨٠ هـ) صاحب كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ، وأبو طالب المكى (٣٨٦ هـ) صاحب كتاب قوت القلوب ، وأبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى (٣٧٦ — ٤٦٥ هـ) صاحب الرسالة القشيرية .

وفى عصر القشيرى ظهر كتاب بالفارسية يسمى « كشف المحجوب » للعلامة الهجويرى ؛ ثم ظهر كتاب الإنسان الكامل لعبد القادر الجيلانى ، ثم كتاب عوارف المعارف للسهروردى (٥٣٩ — ٦٣٢ هـ)

وقد أكثر الشعراء من الشعر التصوفى ، وحاز شعراء الفرس قصب السبق فى هذا الميدان؛ فقد نشأ فيهم منذ القرن الخامس الهجرى حتى الآن كثير من الشعراء الذين جعلوا الشعر التصوفى موضع عنايتهم . وقد سلكوا فى ذلك طريق الرمز والإشارة ؛ واستعملوا العبارات الغامضة للتعبير عن الأفكار التصوفية .

وكان فى مقدمة شعراء الفارسية أبو سعيد بن أبى الخير مبتكر نظام الرباعيات الذى نبغ فيه عمر الخيام . ويعد المثنوى لجلال الدين الرومى (المتوفى سنة ٦٧٢ هـ) أجل الأشعار الفارسية التصوفية الفلسفية شأنا وأرفعها قدرا ، ولذا يسمى « قرآن الفارسية » .

ومن أشهر شعراء التصوف من الفرس الحكيم السنائى ، وفريد الدين العطار ، والسعدى الشيرازى ، والعراقى ، ومحمود الشبسترى ، وحافظ الشيرازى وعبد الرحمن الجامى .

٨ — وإذا استثنينا أشعار عمر بن الفارض(٥٧٦ — ٦٣٢ ﻫ) ، وأشعار محي الدين بن عربى (٥٦٠ — ٦٣٨ ﻫ) ، وبعض مقطعات وأبيات قليلة مأثورة عن بعض المتصوفة فإننا لا نجد للفلسفة التصوفية أثرا يذكر فى الشعر العربى . وإنك لتجد فى ديوان ابن الفارض — فارس الحلبة العربية — كثيرا من عيون القصائد التصوفية التى تروق القارىء ، وتعدمن مفاخر الشعر العربى ؛ فقد جمعت إلى طلاوة الأسلوب وعذوبة الألفاظ روائع المعانى وسوامى الأفكار . اقرأ إن شئت قصيدته التائية الكبرى المسماة نظم السلوك ، أو خمريته أو تائيته الصغرى تجدها قد ملئت روعة وجلالا . هذا على الرغم مما فيها من غموض يقال إن سببه أنه كان يملى قصائده عقب الغيبوبة . ومن ذلك قوله فى وحدة الوجود من قصيدته التائية الكبرى — نظم السلوك :

لها صلواتى بالمقام أقيمهـــا	وأشهد فيها أنهـا لى صلّـت
كلانا مصل واحـــد ساجد إلى	حقيقته بالجمع فى كل سجدة
وما كان لى صلى سواى ولم تـكن	صلاتى لغيرى فى أدا كل ركعة

إلى أن قال :

ومازلت إياها وإياى لم تزل	ولا فرق بل ذاتى لذاتى صلت
وقد رفعتْ تاء المخاطب بيننـــا	وفى رفعها عن فرقة الفرق رفعتى
فإن دعيتْ كنت المجيب وإن أكن	أنادَى أجابت عن دعائى ولبت

ويلقب علماء التصوف محيى الدين بن عربى با لشيخ الأكبر. ولاغرو فقد كان حجة الصوفية فى عصره ، وهو الذى أخرج للناس ذلكم المؤلف الضخم المسمى « بالفتوحات الملكية » وهو أكبر مؤلف ظهر فى التصوف بعد كتاب « إحياء علوم الدين » للغزالى . وقد كان ولا يزال من أمهات المراجع للفلسفة التصوفية . ومن مؤلفات ابن عربى التصوفية القيمة كتاب « نصوص الحكم » الذى أودعه المؤلف كلمات وعبارات يعبر بها عن رأيه فى وحدة الوجود أو الحلول .

ومن شعر بن عربى على لسان الله تعالى يخاطب الإنسان :

يا صورة إنس سِرّها معنائى ما خلقت بالأمر ترى لولائى
شئناك فأنشأناك خلقا بشرا تشهدنا فى أكمل الأشياء

ومن أشهر تلاميذ ابن عربى وأبرز شارحى مبادئه الشيخ عبد الوهاب الشعرانى (المتوفى سنة ٩٧٣ هـ) صاحب الطبقات ، والميزان ، والبحر المورود ، والجواهر فى بيان عقائد الأكابر ، وفيه شرح للفتوحات المكية ، والكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر .

وقد بذل الشعرانى جهودا جبارة فى شرح مبادىء الشيخ الأكبر ، وفى إعادة مجد التصوف بعد أن طغى عليه علماء الظاهر ، وفرقوا بينه وبين التعاليم الدينية.

وقد حاول الشيخ الشعرانى أيضا أن يدافع عن الفقراء والفلاحين الذين استعبدهم ولاة الأتراك ، واستبدوا فى حكمهم ، واستعانوا عليهم بعلماء الدين والموظفين .

ولعمرى إنها لنزعة جديدة لم نسمع بها من قبل ؛ فقد كان الصوفى زاهدا بعيدا عن أمور الدنيا لا تعنيه شئون المجتمع فى قليل ولا كثير . أما فى

أواخر القرن العاشر الهجرى فيخرج هذا الصوفى من صومعته . ويرفع صوته مدويا يطالب بإصلاح المجتمع ورعاية حقوق الضعفاء .

إن هذا هو ما يرويه التاريخ ، وإنه ليسوّغ لنا أن نعد هذا الشيخ الجليل فى زمرة المجاهدين من أبناء الوطن المفدى الذين وضعوا بذور النهضة القومية فى بلادنا المصرية ؟

وبالله التوفيق

فهرس إجمالى للكتاب

استدراك هام

ص	س	الخطــأ	الصواب
٥٦	٦—٧	بنحو خمسة قرون ونصف أيضا كما هو معروف	فقد ظهر موسى قبل محمد بعدة قرون كما هو معروف

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

بإشراف الأستاذ عمر الدسوقى

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

جامعة القــاهرة

صدر منها :   (من سلسلة حياة المجتمعات)

١ — قصة الملـكية فى العالم : تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى والدكتور حسن سعفان

٢ — الرومانتيـكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الـكبرى
تأليف الدكتور محمد غنيمى هلال

٣ — زرادشت : من سلسلة قادة الفـكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر

٤ — كونفشيوس : من سلسلة قادة الفـكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان

٥ — الفـكاهة فى الأدب العربى (جزآن) : من الأدب والنقـــد
تأليف الدكتور أحمد الحوفى

٦ — قصة الزواج والعزوبة فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

٧ — تاريخ الفـكر الاقتصادى : من سلسلة الاقتصاد السياسى
تأليف الدكتور لبيب شقير

٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور صوفى حسين أبو طالب

٩ — ابن خلدون ، منشىء علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوى طبانة

١١ — الحريات العامة بين المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى : من سلسلة الاقتصاد والسياسة : تأليف الدكتور طعيمة الجرف

١٢ — مونتسكيو : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان

١٣ — أبو حيان التوحيدى : (جزآن). من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور أحمد الحوفى

١٤ — هوميروس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور محمد صقر خفاجه

١٥ — حقوق الإنسان فى الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

١٦ — تهذيب الحيوان للجاحظ الجزء الأول — من سلسلة الأدب والنقد —
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون

١٧ — بوذا : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

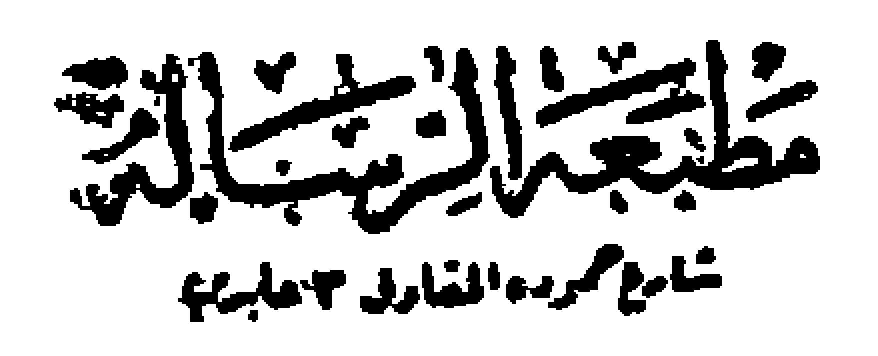
الكتاب التالي من هذه السلسلة :

(داروين)

بقلم

الدكتور سيد بدوي

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة


مطبعة الرسالة


Bibliotheca Alexandrina
0168774